

مشروع القرن الثقافى

روايات مصرية للجيب

فى كل رواية متعة دائمة

ما وراء الطبيعة

76

أسطورة معرض الرعب

د. أحمد خالد توفيق

المقـــدمـة

هناك بالتأكيد شىء مخيف فى المعارض والمتاحف ..

لا أعرف السبب ، لكنك تشعر بجزء ضئيل من هذا الرعب فى متحف الشمع .. أقــول (ضئيل) .. نحن على الأقل نعرف التفسير فى هذه المرة ، وهو أن لمسة الحياة الممتزجة بلمسة الموت فى هــذه التماثيل تثير القشعريرة . العيــون الزجاجية الخالية مــن الحياة ، والضحكة التى لا تعــرب عــن سرور ، والتقطيبة التى لا تنم عن غضب .. كل هذا مخيف ..

لمسة الزمن مخيفة كذلك .. الشعور بأن هذه آثار قوم عاشوا وملئوا الدنيا ، ثم صاروا ترابًا .. هذه لمسة رهيبة ، ولا شك أنك شعرت بهــا لو وجدت نفسك فى قاعة خالية من المتحف المصرى وسط آثار الفراعنة .. لا سياح .. لا صخب .. لا رجال أمن يمنعونك من لمس الزجاج .. فجأة أنت والزمن وجهًا لوجه .. أما عن قاعة المومياوات فموضوع قائم بذاته ..

دعك طبعًا مــن متحــف علم الأمراض الموجود فى كليات الطب ، فالتفسير هنا واضح .. أن تقف أمام إناء زجاجى فيه يد مبتورة مصابة بسرطان العظام ، أو عين منزوعة ، أو مخ لوث النزف أنسجته .. التفسير هنا لا يحتاج إلى طبيب نفسى ..

نعم .. هناك شىء مخيف فى المعارض والمتاحف بلا شك ..

ولهذا من تيمات الرعب التى تؤثر فى كثيرًا ، تيمة أن تصحو المعروضات ليلاً أو تتحرك اللوحات .. هذا كابوس قديم ...

لكن من الصعب أن تجد تفسيرًا لهذه الرهبة التى تشعر بها أمام لوحات . مجرد لوحات قديمة رسمها ديلاكروا أو روبنز ، لكنها تثير فى أطرافك قشعريرة غريبة . فى قصة (ليلة الجنرالات) لـ (هانس هيلموت كيرشت) ، وقف الجنرال النازى أمام لوحة لفان جوخ .. هنا بدأ يرتجف كورقة .. ثم أصابته نوبة صرعية كاملة . السبب أن رسالة الصرع التى تركها (فان جوخ) فى اللوحة انتقلت كاملة سليمة عبر الأعوام إلى الجنرال ...

لم يؤثر فى (فان جوخ) كثيرًا على كل حال ، لكن بعض لوحات (الجريكو El Greco) تجعلنى أرتجف رعبًا وأبعد عينى .. هذا الجو القاتم المنذر بالخطر يحرك فى نفسى شيئًا ما .. أعتقد أنه من القلائل الذين أجادوا بالضبط رسم الكابوس ...

فيما بعد زرت متحفًا غريبًا أطلقت عليه (المتحف الأسود) وكان يحوى آثارًا من قصص رعب قديمة .. وللأسف لم أستكمل زيارته ..

لكن المعرض الذى نتكلم عنه اليوم حالة خاصة جدًا وفريدة ..

الفكرة هنا أنه يعكس حالة نفسية سيئة لدى من رسم اللوحات ، والسؤال هو : هل هذه الطاقة النفسية قادرة على أن تبقى عبر الأعوام لتنتقل لواحد آخر ؟.... لقد رأينا الصرع ينتقل مع (فان جوخ) فماذا عن أشياء أخرى ؟

يبدو أن وقت البدء قد حان ...

فقط نتذكر من جديد أننى (رفعت إسماعيل) العجوز وأن هذه سلسلة (ما وراء الطبيعة) ، وأننى معكم منذ 76 كتيبًا لم أكف عن الكلام قط ...

هيا بنا إذن ...



تمهيد

مصر وإنجلترا هما بلداى ــ كما يعرف القارئ ــ وبنفس ترتيب الأهمية ..

لأسباب يعرفها القارئ المخضرم ، تمثل إنجلترا أهمية خاصة فى حياتى وذكرياتى .. وما زلت أشعر براحة نفسية عندما أسمع اللكنات البريطانية خاصة الراقى منها ، وأرى أنها بلد ساحر ، وأن أناسها ظرفاء مهذبون .. حتى فتياتها ــ فى رأيى الخاص ــ أجمل من أية فتيات فى العالم . طبعًا هذا رأى عجيب لا يروق لأحد تقريبًا سواى ، فمعظم الناس يعتبرون البريطانيين شعبًا سمجًا ثقيل الظل ضيق الأفق ..

فيما عدا إنجلترا زرت الكثير جدًا من بلدان العالم .. وقد اتخذت منذ زمن مبكر مبدأ (الجزء الذى يلخص الكل) . زر رومانيا مثلاً ، فلا حاجة بك إلى زيارة المجر وبولندا والتشيك ويوغوسلافيا ونصف الجمهوريات السوفيتية السابقة .. زر إندونيسيا فلا تحتاج لزيارة تايلاند والفيليبين وكوريا وسنغافوره .. زر السعودية أو الإمارات لتكون قد أخذت فكرة عن الجزيرة العربية كلها . زر سوريا لتأخذ ملخصًا معقولاً عن لبنان والأردن وربما العراق وتركيا كذلك .. زر بلدًا فى قلب أفريقيا لتتلخص

القارة كلها .. زر إيطاليا لتستغنى عن أسبانيا والبرتغال واليونان وكل دول البحر المتوسط غير العربية . طبعًا هذا كلام لا يرضى أى مدرس جغرافيا ، وهناك اختلافات جمة وكل بلد يمتاز بشىء فريد ، لكن هذا هو الحل الوحيد لمن يرغب فى رؤية العالم وليس مليونيرًا . كذلك تبقى بلدان متفردة لا تشبه أى بلد آخر: اليابان .. الصين .. الهند .. أستراليا .. الولايات المتحدة ...

هكذا يمكن القول إننى لم أشعر قط بحاجة إلى رؤية أسبانيا .. لابد أنها تشبه اليونان كثيرًا باستثناء أن الناس لا يتكلمون اليونانية ويصارعون الثيران ويتبارزون حتى الموت من أجل الجميلة (فيرونيكا) طبعًا ...

غير أن الفرصة جاءت بشكل لم أتوقعه .. وفى ظروف لم تخطر لى ببال ..

كيف ؟.... تعال أقص عليك كل شىء ولكن أعد لنا بعض الشاى من فضلك .. إن رأسى يوشك على الانفجار ...

* * *

وصلنى هذا الخطاب منذ أيام .. ليس على عنوان الكلية ، ولكن على العنوان الذى لا يعرفه سوى اثنين فى العالم : وسادتى . طبعًا فتحت الخطاب والدم يتجمد فى عروقى .. منذ زمن سحيق لم أتلق خطابات منها .. كنت أحسب أن هذا الفصل من حياتى قد انتهى ..

عزيزى رفعت :

أعتقـد أن عليك أن تحـزم متاعك وتبحث عن شركة سياحة تأخذك إلى إسبانيا . لماذا إسبانيا ؟.. أسمعك تتساءل فى حيرة ، لكنك تعرفنى وتعرف أننى اعتدت ألا أقدم تفسيرات من أى نوع .. التفسير يأتى عندما يأتى .. سوف تعرف عندما تصير هناك .

طبعًا بوسعك ألا تقبل .. بوسعك أن تحرق هذا الخطاب كالعادة كأنه لم يكن ، لكنك تعـرف غضبى .. أنت تعـرف أشخاصًا وكائنات لا يمكن المزاح معهم أو ادعاء النسيان . نحن لا نقبل الأعذار وأنت جربت هذا من قبل ، لذا أرى أن الحل الوحيد أن تعتبر نفسك مرغمًا ..

عندما تذهب إلى إسبانيا سوف تتذكر تعليماتى ، وهى كالعادة عامة جدًا :

ـ لا ترفض الدعوة لزيارتها فى دارها الأولى .. فقد يكون هذا هو الجواب كاملاً .

ـ ارفض زيارتها فى دارها الثانية ... فأنت لن تعود .

ـ الأشقياء ليسوا كاذبين دائمًا .. قد يقولون الصدق أحيانًا .

ـ الوشم دليل ...

ـ عندما تكلمهن تذكر أنه خلفك .

ـ المحتضرون صادقون دائمًا .

ـ تحرر من قميصك كلما سنحت الفرصة .

بإخلاص :

أنت تعرف من ....

* * *



عزيزتى :

لن أنسى التعليمات .. سأدونها فى ذاكرتى لا على الورق طبعًا .. لا أعرف معنى هذا الكلام .. ربما تريدين منى أن أشترك فى مباراة كمال أجسام خاصة بالمحتضرين ، أو أغنى مع فرقة من التى يرسم أفرادها وشمًا على الجسد كله .. لا أدرى بالضبط .. لا أسماء .. طريقة كتابة الخطاب هى هى ..

الإكسير الذى أعطيتنى إياه يؤلم فعلاً .. الدم لا يتجلط بسهولة ، لكنها الطريقة الوحيدة كى أجـد ما يكفى منه لكتابة رسالة ..

أنت تعرفين أن صداقتك تهمنى وهى مفيـدة دائمًا ، فأنت تحميننى فى مواقف عديدة ، لكن لماذا تضعيننى أصلاً فى مواضع أحتاج فيها إلى الحماية ؟.... أعنى أن هذا غير عادل .. كأنك تقذفين بى فى وسط المحيط ثم تجعليننى أطفو فأشكرك .. كان بوسعك ألا تقذفى بى أصلاً ..

لن أستعمل أسماء ، وإن كنت أطلق عليك فى سرى اسم (الكينونة) .. هذا ليس اسمًا بل صفة فيما أعتقد (لا أعنى الدقة اللغوية طبعًا) ..

هل من تفاصيل أكثر ؟.. إن معرفة نوع المهمة يحدد نوع الأشياء التى سآخذها معى .

سوف أنهى كتابة هذه الرسالة على الورق المدبوغ ثم أحرقه كما اتفقنا ..

بإخلاص :

أنت تعرف من ....

* * *

عزيزى رفعت :

لا تجلب معك شيئًا سوى ما يحتاج له أى سائح .. خذ معك دواء الضغط طبعًا لأن الحبر الذى كتبت به يدلنى على أنه فى حال سيئة ..

عندما تستقر فى مدريد ستتحرك العجلة تلقائيًا وسوف تعرف كل شىء . بالطبع سأكون هناك بشكل أو آخر .. ربما أكون رجلاً أو امرأة . طفلاً أو شيخًا .. ربما أكون قطًا أو يعسوبًا .. سوف أكون هناك وأراقب كل شىء ..

أنت تعرف أننى قادرة على أشياء كثيرة ، لكن عندما أطلب منك شيئًا فلأننى لا أقدر على عمله وحدى .. ليس بسبب العجز ولكن لأن عالمنا مكبل بالقوانين أكثر بمراحل من عالمكم المائع . عندما لا أفعل شيئًا بعينه فلأن من هو أعلى منى يمنعنى من ذلك ..

لتكن الخطابات طريقــة اتصالنا ، ولتكف عن استعمال لفظة (الكينونة) .. إن الناس لا تعرف كنهها لكنها مخيفة موحية بما يكفى ..

لا تجلب الشكوك ... لا تجلب الشكوك .. لا تثر غضبى ، وأنت تعرف كيف أغضب .

بإخلاص :
أنت تعرف من ....

الجـزء الأول

جــويا

الصور محفوظة ويعرفها كل هواة الفنون .. صور مخيفة وكئيبة جدًا .. يراها بعض الأطبــاء تعبيرًا دقيقًا عن الحالة النفسية لمريض التهاب المخ الذى أفقده المرض ســمعه .. ربما كانت هــذه كذلك أعراض تسمم الرصاص الذى أصابه من الألوان التى يستعملها . إن هذه الصور المخيفة هى فى الواقع منظر طبيعى لما يحدث داخــل جمجمته ، بينما يراها بعض المؤرخين رمزًا لإسبانيا تلتهم أبناءها .. اجتماع الساحرات .. الكلب الغامض .. الشيطانة أزيموديا تحلــق فى السماء وتحمل رجلاً مذعورًا مستسلمًا لمصيره .. الرجلان اللذان يتقاتلان بالنبابيت .. من الصعب تخيل مدى كراهية الكون والمقت اللذين سيطرا على الرجل وهو يرسم هذه المواضيع المخيفة ..

-1-

« عندما ينام العقل تولد الوحوش » .

فرانشسكو جويا

* * *

فى هذا الوقت من عام 1792 كان سيدى (جويا) قد بلغ أعلى منحنى حياته .. هذه هى اللحظة التى يبدأ فيها الانحدار لأسفل ..

المؤرخون يقولون إنه أصيب بالكوليرا ، وأنا أعتقد أنهم حمقى .. الكوليرا لا تصيب بالصمم .. ربما كان هذا التهابًا سحائيًا أو مخيًا .. بعض الأطباء وجدوا أن الأصباغ التى يستعملها تحوى كمية كبيرة من الرصاص ، وهذا يضع التسمم بالرصاص – والصمم من أعراضه – ضمن قائمة الأمراض المشتبه فيها ..

من المعروف أن الصمم مع التقدم فى العمر من أهم عوامل الإصابة بجنون الشك ... البارانويا .. وبالفعل يمكنك أن ترى هذه النظـرة المتشككة الغاضـبة المذعـورة نوعًا فى صور بتهوفن ، وتراها كذلك فى صـور سيدى التى رسمها لنفسه فى تلك الفترة ...

ماذا ؟.. تقول إن كلامى لا يمكن أن يصدر عن خادمة ؟.. هذه العبارات المنتقاة ذات الخلفية الطبية لا تتسق مع شخصيتى ؟.. أقول لك إننى تجاوزت هذه المرحلة وصرت أعرف أكثر بكثير من حدودى المادية ..

كان فى حالة نفسية سيئة ، فجلست جواره على ركبتى وقلت له :

– « الرسام لا يفقد الكثير لو فقد أذنيه يا سيدى .. كما أن الموسيقار لا يفقد الكثير لو فقد عينيه .. مع الصمم أنت فى قوقعة خاصة .. ترسم وترسم دون أن يضايقك أحد ، ولو انفجر الكون من حولك فلن تسمع .. »

نظر لى تلك النظرة الحائرة الزجاجية .. لا يسمع حرفًا مما أقول ويحاول جاهدًا متابعة شفتى ..

ثم قال بصوته الذى فقد التحكم فيه :

– « المشكلة يا (دونّا) هى .. هى أن الحواس خليط مبهم .. الرسام يرى الأصوات ويسمع الألوان ويشم المحسوسات .. كل هذا يذوب فى مختبر سيميائى شرير من القرون الغابرة .. كل هذا يذوب فى النهاية ويصير لوحات .. »

بالفعل أجاب عن كلامى كأنه سمعه

وعرفت أنه يتألم .. بالتأكيد يتألم .. لكنه سوف يعتاد هذا ...

سألته بلغة الإشارة عما إذا كان يرغب فى شىء فقال :

ـ « أريد كتبًا .. أريد كتبًا عن الثورة الفرنسية .. أريد معرفة كل شىء عنها .. »

مطلب عجيب لكنى نفذته حرفيًا ..

ابتعت له بعض الكتب عن الثورة الفرنسية وتركته يطالعها ..

ليلة بعد ليلة كان يجلس وحده جوار المدفأة يقرأ كل شىء عن اليعاقبة وميرابو وروبسبير وهدم الباستيل ..

وفى منتصف الليل كان يذهب لمرسمه ويبدأ فى الرسم ..

كانت هذه هى اللوحات التى عرفت فيما بعد باسم (كابريتشو) .. وقد وصف هذه اللوحات ـ وعددها ثمانون ـ بعبارة واحدة : « عندما ينام العقل تولد الوحوش » . واللوحات تعكس الكثير من الكوميديا السوداء وتصف الجنون المسيطر على المجتمع الأسبانى ، وقد علق على كل لوحة بعبارة قصيرة تصفها .

* * *

كنت أحبه كثيرًا وكان يثق بى ..

لقد ظلت هذه العاطفة صامتة أعوامًا لا حصر لها ، والأغرب أن الطرفين كانا يعرفان بها ، لكن أحدهما لم يحاول التحرك خطوة أخرى للأمام ..

فى العام 1808 قام الفرنسيون بغزو أسبانيا .. وتولى أخو (بونابرت) حكم البلاد ..

لم يجرؤ أحد على إساءة معاملة سيدى .. كان الفرنسيون يحترمون الفنون ، وقد عاملوه بالضبط كما يليق به: الفنان الكبير .. لكنه كان مصابًا باكتئاب شديد ...

قال لى ذات مرة :

ـ « الحرب جحيم .. إن الفظائع التى أقرأ عنها لا تفارق خيالى »

أشد ما كان يضايقه هو أن سفاحى الحرب هم الفرنسيون الذين كان معجبًا بهم بشـدة .. كان الأمر يشبه أن تخونه حبيبة منحها ثقتـه وكل شىء . وككل مـرة عرفته فيهـا متوترًا أو حزينًا ، دخـل إلى مرسـمه وراح يعتصـر الأنابيب ويخلط المعجون على القماش .. ثم بضرباته الخشنة القوية المميزة يرسم سلسلة لوحات اسمها (فظائع الحرب)

هذه الصور ما زالت تثير القشعريرة لدى كل من رآها .. لقد رسم السواد الكامن فى النفس البشرية .. رسم الخوف .. رسم الرعب والقسوة .. كل هذا فى 82 لوحة بالأبيض والأسود وبطريقة (التهشير) ، أبقاها سرية كأنها نوع من الخواطر السوداء ..

ظلت هذه اللوحات مجهولة حتى بعد وفاته بخمسة وثلاثين عامًا ، وأكون شاكرة لو كففت عن إبداء الدهشة من أننى أصف أحداثًا حدثت فى المستقبل ..

الحقيقة أننى كنت أتسلل لمرسمه عندما أدرك يقينًا أنه نائم ، وأراقب هذه المجموعة من اللوحات تنمو .. كانت تثير هلعى وكنت أتصور نفسى ضحية من ضحايا هذه الحرب حيث لا قيمة لحياة إنسان ولا خصوصيته ولا شرفه ، لكن فى الوقت ذاته كان هذا الشعور المرعب لذيذًا .. يبدو أنه نفس الشعور الذى يحسه هواة الرعب عندما يشاهدون فى عصركم هذا أفلامًا مخيفة ..

* * *

كان سيدى جويا فى الستين من العمر الآن ..

إنه العام 1819 ..

بالنسبة للناس كان شبه مجنون وكان غريب الأطوار ، لكنى كنت جزءًا منه ، لهذا لم يتبدل أسلوبه معى .. ولم أجد فى معاملته لى شيئًا غريبًا ..

لكنه لم يعرف أن فصلاً جديدًا من حياته يوشك على البدء ..

لقد قال لى :

ـ « سئمت هذا البيت يا دونا .. أريد أن ننتقل إلى بيت آخر .. »

قلت له :

ـ « تعرف أننى سأتبعك إلى أى مكان يا سيدى .. »

لم يسمع طبعًا ما قلت لكنه خمنه .. وقف ينظر من النافذة وقد عقد يديه خلف ظهره كأنه جنرال يراقب جيشه يخسر فى ميدان القتال ، ثم استدار لى وأخرج لفافة ورق من جيبه وقال:

ـ « ابتعت بيتًا ريفيًا خارج مدريد .. »

ـ « أين ؟ »

واصل الكلام كأنه سمع إجابتى ..

ـ « على ضفاف نهر مانزناريس .. هل تعرفين اسمه ؟.. اسمه (كوينتا دل سوردو) !! »

نظرت له فى رعب ..

هل اختار المنزل لانه يحمل هذا الاسم أم هى صدفة غريبة ؟.. الأمر محير ..

رأى نظرتي فقال وهو يعيد اللفافة لجيبه :

ـ « اسم مناسب جدًا كما ترين .. أرجو أن تشرفى على عمليات نقل الأثاث وكل شىء .. »

كنت أعرف أننى أريد أن أكون جواره ، حتى لو سكن فى مستنقع أو فى أحراش أفريقيا .. لا أعرف مشاريعه لكننى معه فى كل شىء وحتى يموت أحدنا ..

هكذا بدأنا فى عملية الانتقال .. وجاء البيت عشرات من الرجال وصهلت عشرات الخيول .. لوحات كثيرة جدًا وضعت فى صناديق وأنزلت من الطابق العلوى .. حوامل رسم .. أصباغ ..

لقد بدأ فصل جديد من حياتنا فى (كوينتا دل سوردو) ..

ومعناها بالإسبانية (منزل الرجل الأصم) !!

* * *

لم يكن الاسم يقصد جويا ، بل هو الاسم القديم لمالكه الذى كان أصم .. اسم غريب فعلاً ومصادفة أغرب ..

شهد هذا البيت الأيام الأخيرة لحياة سيدى ..

لم يكن اجتماعيًا فى الأيام الأخيرة ، لكنه تحول بالفعل إلى وطواط ... صار يمضى عشر ساعات فى غرفة الطعام وغرفة مكتبه ، ولم يكن يسمح لأحد بالدخول .. عندما كنت أجلب له الطعام كنت أجذب الحبل الذى يحرك ستارًا عنده فى الغرفة ، باعتبار هذا نوعا من الجرس الصامت . كان يأخذ الطعام من على الباب ، فأرى أن يده ملطخة بالأصباغ مع رائحة زيت بذرة الكتان تفوح منه ، مما جعلنى أدرك أنه يرسم .. يرسم ماذا وما هو مشروعه الأخير ؟ . لكنه كان يغلق الأبواب عليه وعندما ينصرف يتأكد من أن الباب موصد بالمفتاح .. هذه على قدر علمى أول لوحات له لا أحضر مخاضها وولادتها ..

لم يكن يستعمل موديلات .. هذا يريحنى .. كنت أكره لوحة (الماجا Maja) العارية الشهيرة وأغار منها بصراحة .. وأثار غيظى أنه رسم تلك المرأة (بيبيتا تودو) مرتين .. مرة بثيابها ليعرض اللوحة على زوجها ، ومرة عارية لنفسه . ثم رفض أن يفصح عن شخصيتها للجميع ، حتى أن البعض حسبها (دوقة ألبا) ..

نعم .. أنا سعيدة لأنه لا يستعمل موديلات ..

كنت أسمع صوته يئن أو يصرخ ... وارتجف الدم فى عروقى لأننى عرفت أنه يكلم الأشخاص فى اللوحات .. كان يعيش فى عالم آخر ويكلم أفراده .. وعلى الأرجح هو يسمع جيدا فى ذلك العالم ..

لم يكن يرسم فى مكان معين بل فى كل مكان .. وأحيانًا كان ينزل إلى القبو .. ومع الوقت انكمشت مساحة حريتى كثيرًا ، وصارت أكثر غرف البيت ممنوعة على سواء للتنظيف أو الاستعمال العادى . النتيجة أن القذارة بدأت تعم المكان ..

ترى ماذا دهاك يا سيدى ؟

أخشى أن أقولها ، لكنى مذعورة فعلاً .. مذعورة من أن تنزلق إلى عالم الجنون ..

أم أنك انزلقت فعلاً ؟

-2-

وهكذا قضيت أيامًا فى ذلك الفندق فى مدريد . اسمه (جرين لوب دى فيجا) — وأرجو أن أكون قد نطقت الاسم جيدًا — وهو يقع فى مركز (مدريد) بالضبط ...

رحت أتصرف كسائح بسبب الفراغ .. شعور غريب بأنك تنتظر التعليمات ، كأنك بطل إحدى قصص الجاسوسية تنتظر أن يتصل بك العميل (هـ) .. لا شىء يحدث .. لا أحد يتصل . لا رسائل تحت الوسادة ..

جولات فى المدينة .. غداء فى مطاعم .. ابتعت خارطة ودليلاً سياحيا وكتيبًا لتعليم الإسبانية .. ليست صعبة جدًا .. أعتقد أن بوسع كل من يجيد الفرنسية أن يجيدها ، لكن من قال لك إننى أجيد الفرنسية ؟

المشكلة هى أننى أعرف (الكينونة) .. لا تفاهم معها ولا مزاح ، وهى قادرة على أن تحيل حياتى جحيمًا . قد لا أكون مباليًا بالموت ، لكنها بالتأكيد تملك أنواعًا من العقاب أقسى من الموت ..

لأسباب لا تخفى على أحد قمت بإخفاء كل ذكرياتى مع (الكينونة) .. آسف .. هذه ذكريات غير مسلية [illegible]

أنو يومًا أن أحكيها ، ليس لأنها مشينة لا سمح الله ولكن لأنها عسيرة الشرح ومفزعة فعلاً ...

لا تفاهم مع الكينونة لذا على أن ألعب دور السائح وأصبر ...

* * *

فندق (جرين لوب دى فيجا) يقع فى منطقة استراتيجية من العاصمة مدريد .. أمامه بالضبط يقع متحف (برادو Prado) أهم متحف في أسبانيا .. لعبة موفقة للحظ كما ترى ولم أتعمدها قط ..

هناك كذلك متحف (تيسن) ومتحف فنون (راينا سوفيا) و(بنزيو دل برادو) .. كلها بقرب الفندق .. لو مشيت قليلاً لوجدت نفسك فى حديقة رتيرو .. مكان مناسب كى تتنزه فيه مع حبيبتك ، أما لو لم تكن لك حبيبة فلتنم فى غرفة الفندق حتى الواحدة ظهرًا كما أفعل أنا .. ولسوف تكتشف أن للفراغ العاطفى مزايا مهمة .. لن ترغم على قضاء يومك مع فتاة ثرثارة لا تكف عن الكلام عن نفسها ..

يمكنك أن ترى التحف الفنية لرسامى الماضى فى متحف (برادو) .. أما (راينا سوفيا) فترى فيه أعمال بيكاسو ..

طبعًا أنا مولع بالماضى ، ولا أفهم الكثير من هذه الخطوط المعقدة التى يرسمها بيكاسو .. لهذا وقع اختيارى على متحف (برادو) ...

تعال معى .. تخلص من ترددك واتبعنى ..

سوف ألعب لمرة واحدة دور المرشد الثقافى ، ولن أكتفى بأن أحكي قصصًا تثير رعبك .. هذه المرة ألعب دور تلك الكتب التى تحمل عنوانًا مثل (تعال معى إلى ... ...) .. اليوم تعال معى إلى متحف (برادو) ..

النشرات تقول إن المتحف هو أكبر متحف فنى فى العالم .. هناك 8600 لوحة لا يعرض سوى ربعها بسبب ضيق المكان ..

يعود تاريخ هذا المتحف لعام 1819 عندما أنشأه فرناندو السابع ..

تعرض هذا المتحف لأخطار مهولة وكاد يدمر مرارًا أثناء الحرب الأهلية الاسبانية ، لدرجة أنهم نقلوه بالكامل إلى سويسرا ثم استعادوه بعد الحرب العالمية الثانية ..

ويتم عرض اللوحات فى بنايتين: فيلانوفا وكازون دل بوين رتيرو ..

قطعت تذكرة ثم رحت أجوب المكان

عرفت على الفور لوحات (فيلاسكويز) .. له أسلوب مميز واضح لا يمكن أن تخطئه العين . لوحات رائعة الجمال لكنى أؤمن مثل (أوسكار وايلد) أن الطبيعة ليست طبيعية !.. بمعنى آخر أنا المجنون الوحيد الذى يرى أن هذه اللوحات تبدو أجمل فى المجلات !.. هنا ترى الخشونة وضربات الفرشاة وتلمع أجزاء من الصبغات مما يبدو متعفنًا . إن المجلات تظهر اللوحة لا كما هى بل كما ينبغى أن تكون .. رأى عجيب لكنى لم أتخل عنه قط فى حياتى ، ولا أنسى خيبة أملى عندما رأيت الموناليزا فى متحف اللوفر أول مرة .. خطر لى أنها اجمل بكثير فى الملصقات ..

ثم توقفت أمام لوحات جويا Goya ... فرانشسكو جويا .. مفخرة الفن الأسبانى ..

عرفت على الفور هذه الخطوط المميزة والإفراط فى اللون البنى ..

هذه هى السيدة ذات المروحة .. وهذه هى الماجا التى تبدو عارية فى صورة وكاسية فى صورة أخرى .. لوحة الإعدام الشهيرة .. الحق إن الرجل كان فنانًا بحق ..

لم أفطن إلى أننى صرت وحدى فى قاعة ممتدة يصعب فعلاً أن تكون خالية فى وقت كهذا ...

كانت هناك مقاعد على مسافات متباعدة بحيث تتيح لمن يشاهد لوحة أن يجلس لينعم النظر .. وقد اخترت مقعدًا أجلس عليه ..

ورفعت رأسى أنظر إلى اللوحة التى أمامى ..

كانت لوحة شهيرة جدًا .. أذكرها لكن لا أذكر تفاصيلها ..

كان هناك غول عملاق يمسك بإنسان صغير الحجم ويدس نصفه العلوى فى فمه .. هناك دماء تسيل والموضوع كله قاتم دموى أكثر مما تتحمله لوحة .. دققت النظر أكثر فقرأت عنوان اللوحة الذى كتب بالأسبانية والإنجليزية (عطارد يلتهم ابنه) ...

نعم .. نعم .. أذكر أسطورة كهذه .. عطارد اضطر لالتهام ابنه لأن هناك نبوءة تخيفه ، عن أن أبناءه سوف يتخلصون منه .. لم يفر من هذه المأدبة الرهيبة سوى (زيوس) ..

لوحة رائعة لكن الموضوع غريب ومنفر بالتأكيد .. ليس من المواضيع التى تروق لشخص بكامل قواه العقلية والنفسية .. التنفيذ أيضًا كان عنيفًا خشنًا قاتمًا ..

نهضت ومشيت بضع خطوات ..

هنا توقفت أمام لوحة أخرى لجويا .. لوحة ذات قطع غير مألوف يذكرك بكادر السينما سكوب ..

كان هناك حشد من النســاء العجائز .. صف طويل من نساء شمطاوات أشبه بالساحرات الشريرات .. بل هن كذلك فعلاً . إنهن مجتمعات ونظراتهن جميعًا تتركز على شخص يجلس فى مقدمة الكادر وظهره لنا .. إنه أقرب إلى سلويت ، لكنك قادر على رؤية ملامحه .. رأس جدى أسود ...

الشيطان !...

كل أساطير القرون الوسطى تحكى أن الشيطان كان يحضر اجتماعات الساحرات على شكل غراب أو جدى أسود .. الجدى له سمعة سيئة فى هذا الصدد ، وأنت تعرف أن الشيطان يرسم دومًا على شكل تيس . عندما جاءت المسيحية وجدت أن الأوروبيين يعبدون الكثير من الآلهة الوثنية .. لم تلغ المسيحية هؤلاء الآلهة ولكن حولتهم إلى شياطين ، وهكذا نجد أن (بان) إله المراعى عند الإغريق واليونان تم تخفيض رتبته إلى شيطان .. ولما كان (بان) يُرسم كجدى فقد صار هذا شكل الشيطان المتفق عليه .. وفى عصور محاكم التفتيش كان امتلاك المرأة لجدى أسود سببًا كافيًا لحرقها بلا محاكمة .

لوحة مخيفة أخرى من الأخ (جويا) ..

هناك لوحة أخرى تظهر عجوزًا يجلس إلى مائدة مع عجوز آخر .. عجوز لدرجة أنه تحول إلى جمجمة تقريبًا ، والمخيف أنهما سعيدان ..

ما هذا المزاج السوداوى الشنيع ؟

بحثت عن لافتة تفسر كل شىء ، فلم أجد سوى عبارات إسبانية .. من السهل محاولة ترجمة الإسبانية اعتمادًا على خلفيتك اللاتينية والفرنسية ، لكنى لم أر كلمة واحدة تنير الطريق ..

هذا الرجل اهتم بالرعب بطريقة غير معتادة .. لم أكن أعرف سوى رسام واحد هو (فيوزللى) الذى رسم اللوحة الشهيرة للجاثوم .. لكن فيما عدا ذلك لم أر هذه اللمسة المرعبة التى تثير القشعريرة ...

الحق إننى ... إننى ....

أشعر بأننى أختنق .. الجرثومة المرعبة التى وضعها العبقرى فى اللوحات منذ عشرات الأعوام قد مضت فى دمى .. خرجت براعمها وتكاثرت ...

الحق إننى لم أشعر قط بشعور كهذا ، وأنا وحدى تمامًا فى قاعة خاوية صامتة وإضاءة خافتة ، على بعد سنتيمترات من اللوحات .. ذات اللوحات التى وقف جويا أمامها منذ مائتى عام يرسم مخاوفه .. كانت يومها لينة ولها رائحة ..

ساقاى تتخليان عنى ..

هكذا جلست ورأسى يدور وأدركت أننى بحاجة لهواء نقى ..

هنا سمعت صوتها يقول بعربية مهشمة:

ــ « اللوحات السوداء . رائعة .. أليس كذلك ؟ »

-3-

(دونًا) رقيقة ..

(دونًا) جميلة ..

(دونًا) لها عينان سوداوان رائعتا الجمال ، وفيهما صفة الحور التي هام بها العرب .. سواد العين أكثر من البياض بكثير ، فإذا أضفنا لهذا غابة أهداب كثيفة لشعرت فيها بطابع عربى ساحر ..

(دونًا) تعرف الكثير ..

(دونًا) تمشط شعرها طيلة الوقت بمشط صغير أنيق ..

(دونًا) حانية تهتم ..

(دونًا) أشبه بجواد عربى أصيل شامخ الرأس تتطاير معرفته مع النسيم ..

(دونًا) أشبه بكل الفل والريحان الذى عرفته الأندلس وقد تم تقطيره فى صورة كائن حى ..

لو كنت أصغر من هذا بثلاثين عامًا لوقعت فى حبها بالتأكيد .

* * *

فى حديقة رتيرو .. يمكنك أن تمشى وتشم الهواء النقى ، بينما (دونا) تمسك بساعدى حتى لا أقع .. منظرنا جميل جدًا كأب يتنزه مع ابنته رائعة الحسن ، وقد قابلت الكثير مما كنت أقرؤه عن طباع الأسبانيين .. كل رجل يراها يصفر .. أعرف أنهم يقرصون كذلك ، لكن هذا لم يحدث هنا لحسن الحظ .. التصفير يعتبر مجاملة رقيقة يسر لها الأب كثيرًا ، بينما لو كانت ابنتى فعلا لتشاجرت وذهبت إلى القسم .. ترى ما معنى (القسم) فى الإسبانية ؟

هناك من يركبون قوارب صغيرة فى البحيرة ، ويجدفون ، بينما جلس عدد كبير يحتسون القهوة ويطالعون الصحف ..

كانت تلبس تايورًا أبيض محتشمًا وحذاء ذا رقبة ، وشعرها الأسود الطويل يصل إلى أعلى خصرها .. باختصار لم يكن فيها سوى لونين هما الأبيض والأسود ..

قالت لى بعربيتها المضعضعة :

ـ « لا أتكلم العربية إلا فيما ندر لذا أنا سعيدة أنك تفهم كلامى . »

قلت كاذبًا :

ـ « عربيتك ممتازة ... »

كنت شارد الذهن أفكر فيمن تكون حقًا .. لو كانت هى (الكينونة) فلن أعرف ذلك إلا متأخرًا .. هناك خمس علامات تميز (الكينونة) ـ واسمح لى ألا أذكرها ـ لكنى لا أتبين أية علامة فى هذه الفتاة .. بالطبع لن أبدأ بسؤالها عما إذا كانت هى (الكينونة) أم لا .. هذا لا يمت للباقة بصلة .. دعك من ان حدسي يقول إنه لا غبار عليها .. هذه مجرد فتاة إسبانية جميلة تجيد العربية ...

كيف خمنتَ أننى عربى ؟

انحنت لتلتقط زهرة صغيرة ملقاة على الأرض وقالت:

ـ « أنا من (المور Moor) .. أى أن أصولى عربية منذ كان العرب هنا ، وكان شبه جزيرة إيبريا يدعى (الأندلس) .. أنت تعرف القصة أفضل منى .. »

وراحت بأناملها الدقيقة تحاول أن ترجع البتلات إلى ما كانت عليه ثم قالت :

ـ « يبدو أن اللوحات السوداء قد هزتك ... »

قلت لها وأنا أتعثر :

ـ « لا أعرف ما هى .. لكنى فهمت نوبة الصرع التى أصيب بها الجنرال النازى عندما رأى لوحات (فان جوخ) فى رواية (ليلة الجنرالات) . أعتقد أن الأمر شبيه بمفهوم التردد الفيزيائى .. نفس تردد روحى التقى مع تردد روحه فحدث الرنين »

(دونا) تعرف الكثير عن اللوحات السوداء ... .

شابان يصفران ويهتف احدهما بالإسبانية بشيء .. غالبًا يغازلها بصوت عال ..

قالت لى وهى تبتسم قليلاً لأن ما سمعته راق لها:

ــ « فى أواخر حياته كان (جويا) مصابًا بالصمم مع حالة كراهية عامة للبشر واشمئزاز من الحروب وطباع الإنسان . ابتاع بيتًا جوار مدريد يدعى (كوينتا دل سوردو) .. هناك ما بين العامين 1819 إلى 1823 بدأ يرسم مجموعة غريبة من اللوحات .. بعضها على القماش وبعضها على الجدران مباشرة .. كان يستعمل تقنية معينة للرسم على الجدار اسمها (أل سيكو) .. ما وجدوه يشكل 14 لوحة مرعبة أو غريبة .. اصطلح النقاد على تسميتها (الرسوم السوداء) لأنها تعكس سوداوية قاسية غريبة .. وفيما بعد تم نقل هذه اللوحات إلى متحف برادو ــ باستعمال تقنية معقدة سمحت بنقل الرسم الجدارى إلى لوحات قماشية ــ فالمنزل لم يعد له وجود ... أو هذا ما يعرفه الناس »

« كان المنزل يتكون من عدة أجزاء ، لكن به طابقين .. وكانت هناك قاعتان واسعتان . هناك بدأ يرسم لوحاته الرهيبة .. وكان يتخذ من الإضاءة الطبيعية القادمة من النوافذ جزءا من مكونات

اللوحة . بمعنى أن بعض اللوحات لا تشاهد جيدًا إلا فى ظروف الاضاءة التى كانت تعرض فيها . كانت هناك نافذتان فى الطابق السفلى ونافذة واحدة فى الطابق العلوى ، لهذا كانت الرسوم السفلية أقل عددًا .

« وهكذا .. »

سألتها :

ــ « هل مات هناك ؟.. فى ذات البيت ؟ »

(دونا) تبعد الشعر الأسود الفاحم عن عينها كثيرًا .. ثم تخرج المشط الصغير ذهبى اللون وتمشط شعرها بعناية ..

(دونا) تقول :

ــ « لا .. عام 1824 ترك جويا البيت .. واتجه إلى (بوردو) بفرنسا . فهو لم يعد يطيق أسبانيا . ظل هناك ــ باستثناء زيارة قصيرة لأسبانيا ــ حتى العام 1828 حيث توفى وقد جاوز الثمانين من العمر لكن رفاته فى مدريد على كل حال . بيع البيت بما فيه ليمر عليه ملاك كثيرون ، حتى وصل إلى يد البارون (ارلانجر) . فأمر بنقل هذه اللوحات إلى متحف (برادو) عام 1874 . طريقة معقدة جدًا تنقل الرسم الجدارى إلى القماش »

قلت في دهشة :

ـ « إذن .. البيت الذي رسم فيه اللوحات لم يعد قائمًا .. »

ـ « هذا ما يقال .. لكن الخبراء رسموا له نموذجا مجسما .. وهم يعرفون كيف كان يبدو بالضبط . »

ثم نظرت لي وابتسمت كأنها أم تشجع ابنها على ركوب الزحافة :

ـ « هل تشعر الآن بأنك قدر على رؤية اللوحات السوداء من جديد ؟ »

قلت لها :

ـ « سأحاول »

-4-

زرت كل ركن في مدريد بمساعدة (دونا) الحسناء .

قد يسأل البعض: لماذا تضيع حسناء مثلها الوقت مع كهل مثلي ؟.. ولماذا تتطوع لتكون دليلاً له ؟.... الله وحده يعلم الإجابة ، وإن كانت أكثر الإجابات منطقية في رأيي هي أنها (الكينونة) ذاتها .. برغم هذا لم أتحمس لذلك .. (الكينونة) تعطي شعورًا معينًا من عدم الارتياح عندما تكون موجودة ، دعك من أن الأمر لا يمكن أن يكون بهذا الوضوح .. مستحيل .. أن تكون هي الفتاة الوحيدة التي أعرفها في مدريد ..

لقد أحببت مدريد فعلاً ، وأرى أن من لم يزرها قد خسر الكثير .. ليست نظرية (بلد يلخص باقي البلدان) ناجحة دائما .. لكني كذلك كنت في غاية القلق لأنني لم أعرف بعد ما سيحدث ولا لماذا أنا هنا . لقد أوشكت إجازتي على الانتهاء فلم أحقق سوى تبديد مبلغ لا بأس به ..

(دونا) كانت طالبة فنون . هذا يفسر كل شيء واهتمامها بجويا وفلاسكويز والجريكو .. ثلاثى العبقرية الإسبانى .. هذا بالطبع لو لم نتكلم عن المعاصرين مثل بيكاسو ودالى

قالت كذلك إنها خارجة من علاقة فاشلة .. قلت لها إن بدرو بالتأكيد لم يكن جديرًا بها .. إنه شاب رقيع والطريقة التى يطيل بها شعره ليخفى أذنيه ، والمنديل المزركش الذى يحيط به عنقه . كلها علامات على أنه لا يعتمد عليه ..

سألتنى باسمة :

ـ « من هو بدرو ؟ »

ـ « لابد من واحد .. أليس كذلك ؟ »

ـ « اسمه (مانويل) . وهو شاب مثقف ممتلئ بالرجولة ومهندس ناجح .. لكنه شعر بالملل منى .. »

ـ « لكنه أحمق .. بالتأكيد أحمق .. »

لا أحــد يفقــد (دونَا) بكمل إرادته .. هى التى تتخلى عن الناس فيصابون بالعته والبله المغولى ويموتون كمدًا ... لابد أنها اتفقت مع شركة نظافة للتخلص من جثث العشاق الميتين أمام بابها ، أو لعلها تستعمل جثثهم فى تسميد الحدائق . .

أين تعيش ؟

تقول وهى تمشط شعرها :

ـ « حاليًا أنا أقيم مع صديقة لى .. إيزابيلا ...فى شقتها بمدريد .. لكن بيتى الأصلى فى الريف خارج مدريد .. على ضفة نهر مانزناريس .. »

ـ « وهل تعرفين شجرة أسرتك ؟.. من أين جاءت أصولك العربية ؟ »

ـ « جدتى كانت تعرف هذه التفاصيل لكنى لا أعرف شيئًا .. فقط كان أهلى والجيران يقولون إن أسرتى من المور .. والمور على كل حال لفظة واسعة تعنى غالبًا (قاتم اللون) أو (اللون البنى) .. لسبب واضح أطلق هذا الاسم على من يحملون جذورًا عربية .. »

(دونَا) تعرف أشياء كثيرة عن المور ..

(دونَا) لا تعرف الكثير عن جذورها ..

على كل حال يمكنك أن تجد أن كل حجر هنا يفوح بالثقافة العربية . مع حشد من الكلمات التى لا تختلف فى النطق عنها فى العربية ..

* * *

(دونّا) تعرف الكثير عن (جويا) ..

كنا فى التلفريك الشهير فى مدريد ، الذى يصل ما بين غرب المدينة (روزاليس) إلى ذلك المطعم الشهير فى حديقة (كازا دى كامبو) .. أكره المرتفعات والتلفريك لكنى لم أظهر هذا ..

قالت لى :

ـ « هناك مجموعات للفنان (جويا) ذات طابع واحد .. منها الرسوم السوداء كما قلت لك ، ومنها مجموعة أهوال الحرب ، ومجموعة المجانين .. مجموعة المجانين بالذات مخيفة جدًا تعكس العالم المرعب المقبض للمجانين فى المصحات . سوف ترى مجموعات من المرضى شاخصى النظرات أو يشوحون بأيديهم أو يتصارعون أو يؤذبون بعضهم .. »

كنا الآن فى (بورتا دل سول) ..

(بورتا) معناها بوابة ... لقد كانت هى بوابة المدينة فى العصور السابقة ...

قالت لى معلومة غريبة جدًا ، هى أن هذا هو مركز أسبانيا نفسها .. هناك يقع مبنى البرلمان وكل المسافات تقاس من هذه النقطة .. أى أنها النقطة صفر !..

لو مشيت دقيقتين لا أكثر لوجدت نفسك فى (بلازا مايور) . المكان الذى كانت تقام به المهرجانات ومصارعات الثيران .. اليوم هو حشد من الكافتيريات والمطاعم ومئات السياح .

جلسنا هناك فى (بلازا مايور) أشرب القهوة أما هى فطلبت لنفسها مشروبا روحيًا ما . رحت أراقبها خلسة وهى ترشف من كأسها .. مسرورة جدًا هانئة كقطة .. هى من البشر الذين يجب أن تراهم لو شعرت باكتئاب ..

فرغتْ من كأسها فنظرت لى ثم قالت :

ـ « هل تعرف أن بيتى على مرمى حجر من هنا ؟ »

ـ « تعنين شقة صديقتك .. إيزابيلا إن لم تخنى الذاكرة .. »

ـ « إيزابيلا ليست فى مدريد هذه الأيام .. »

ـ « خبر مهم وجميل .. لكن ما دخلى به ؟ »

قالت ببساطة :

ـ « حسبت أنك تحب أن ترى شقتى وغرفتى .. »

فكرت فى طلبها مليًا .. هناك ألف سبب [illegible] لكن ليس من بينها الإغواء .. لأسباب واضحة أنا لا أشكل فتى أحلام أو

فتاة ، وبالتأكيد أدق تشبيه سمعته فى حياتى ويصفنى كان أننى (أجمل من أية زجاجة زيت تموين فى العالم) .. دعك من أنها فى عمر ابنتى لو كانت عندى واحدة .. إذن هناك سبب .. سبب قوى ..

سألتها فى حذر :

ـ « ظننت أننا على ما يرام هنا .. »

قالت فى عدم اكتراث :

ـ « ربما .. لو كان هذا يروق لك أكثر فليكن .. »

هنا سمعت فى ذاكرتى صوت الكينونة يقول لى .

ـ « لا ترفض الدعوة لزيارتها فى دارها الأولى .. فقد يكون هذا هو الجواب كاملاً ..

هذه هى تعليماتها فهل تنطبق هنا ؟

كنت أحسب (ها) تعود على إسبانيا .. يبدو أنها تعود على أنثى ..

رشفت ما بقى من قهوة فى القدح . ثم قلت لها فى حزم وأنا أخرج بعض العملة من جيبى :

ـ « ليكن .. كنت دائمًا شغوفًا بأن أرى بيتك وكيف تعيشين .. سيكون هذا مسليًا .. »

ـ « دائمًا ؟.. نحن لم نلتق إلا منذ يوم ونصف .. »

ـ « دائمًا فى اللغة العربية معناها (منذ يوم ونصف) .. تعرفين أننى دقيق .. »

-5-

بالفعل بيتها على مرمى حجر من (بلازا مايور) ..

كانت بناية لها ذلك الطابع العتيق المزخرف الذى لا تراه إلا فى أوروبا . شارع من الشوارع المرصوفة بالحجارة التى تذهب بعقلى من فرط جمالها . سيارات (سيات) صغيرة على الجانبين . متسولة عجوز تتظاهر ببيع الصحف ، وتبدو بأنفها الكبير وقلمتها المحنية خارجة من إحدى قصص سيرفانتس .. جدران أبلاها القدم وزحفت عليها الرطوبة ، لكنها جميلة .. شارع ضيق به أشجار على الجانبين .. البناية من الطراز الذى له بوابة حديدية تفتح بالمفتاح ، لكن هناك مديرة نزل تجلس فى غرفتها وتراقب كل شيء يحدث فى المدخل من نافذة زجاجية صغيرة ، ومن حين لآخر تحمل رشاشة وتخرج لتسقى بعض الأزهار على إطار نافذة هناك .. . هناك مصعد عتيق يصلح للسقوط بركابه جدًا .. تلك المصاعد التى تملأ بنايات وسط البلد القديمة عندنا ..

باختصار هناك مزيج فريد من القدم والجمال هنا .. لم يترك القدم لمسة القبح الكريهة إياها ، وفى الوقت نفسه لم يستطع المصعد أن يجعل المكان حديثًا ..

المصعد يعمل لحسن الحظ وإلا لصعدت هذه الدرجات لأسقط فى القبر .. مديرة النزل لا تسأل ولا تتدخل فيما لا يعنيها ، وإن رمتنا بنظرة كارهة للعالم فبادلناها نفس النظرة ..

شقة (دونا) فى الطابق الخامس ...

تدس المفتاح فى الباب وتدعونى للدخول ..

شقة جميلة جدًا وبسيطة إلى حد فاتن . لا يوجد أثاث تقريبًا وإنما ورق حائط مزركش بتلك الطريقة المميزة لذلك العصر ، حيث كان العالم كله أقرب إلى قميص مشجر ..

هناك ملصق عملاق للثائرة (أنجيلا ديفيز) .. لا يوجد جيفارا وهذا غريب .. هناك بار صغير ومجلس من الوسائد الموضوعة على الأرض يذكرك نوعًا بالقعدة العربية عندنا .. هناك سماعتا ستريو عملاقتان بحجم الطفل الصغير المصاب بالاستسقاء .. وهناك فونوغراف ومجموعات من أغلفة الأسطوانات عليها ترى صور البيتلز ....

قلت لها وأنا أتأمل المكان :

– « شقتك جميلة وشبابية جدًا .. بنت بهذا العصر كما هو واضح .. »

ابتسمت وطوحت حذائيها واتجهت لمرآة صغيرة فأعادت تمشيط شعرها ، ثم قالت وهي تتجه إلى البار :

ـ « متأخرة عشر سنوات لو لاحظت .. لقد تجمدت في الستينات .. »

وصبت لي بعض عصير البرتقال وناولتني الكوب العملاق ، ثم وثبت لتتربع على إحدى الوسائد على الأرض وعقدت قدميها تحتها وقالت :

ـ « وبعد ؟ »

رشفت رشفة من البرتقال ، ثم ضحكت في حرج :

ـ « لا يوجد بعد .. »

ـ « هل وقعت في الحب من قبل ؟.. لابد أنها فتاة ساحرة العينين سمراء فارعة القامة .. اسمها .. اسمها (فاطمة) أو (عزيزة) .. لابد أنها تطل من المشربية وتضحك لك من وراء خمارها ..

ضحكت لهذه الصورة النمطية .. وقلت :

ـ « منذ ربع قرن أنا واقع في حب فتاة بريطانية نحيلة كعود الخلة . في منتصف العمر .. أستاذ في علم الفيزياء بالجامعة ،

وتقيم في قصر أسكتلندي قديم ، وتتكلم كالإنجليز المهذبين ، بتلك الطريقة التي توحي بأن فمها محشو بالبلي وتخشى أن يقع »

اتسعت عيناها في دهشــة .. آخر شيء توقعته فعلاً .. قالت ضاحكة :

ـ « هذا آخر شيء توقعته .. يفسد كل سحر الصورة في ذهني .. »

ـ « نعم .. الجمال والسيوف والباعة النصابون في البازارات .. كل هذا لا وجود له .. »

ـ « ولماذا لم تتزوجا ؟ »

ـ « لأننا قررنا أن نبقى الصورة جميلة كما هي .. ألا نقترب من بعض لدرجة أن نفسد كل شيء .. لهذا ظلت هي في خلفية حياتي ووجداني كقيمة مقدسة .. وأعتقد أنني أمثل لها الشيء ذاته .. »

قالت في اشمئزاز :

ـ « لا أثق بالبريطانيات .. أنت في مصر تلعب دور العاشق الرومانسي المخلص ، بينما هي تعيش حياتها كما يروق لها في وطنها ومن حين لآخر ترسل لك خطاباً تقول فيه إنها مشتاقة .. »

أثار هذا غيظي .. ماذا تريد هذه الفتاة مني ؟.. هي لا تحبني ولن تحبني .. فلماذا تهاجم (ماجي) التي لا تعرفها أصلاً ؟.. ولماذا ...

ــ « لا أريد أن أكون فظاً .. لكن ألفت نظرك إلى أنك تقتحمين مناطق شخصية جداً في حياتي .. هذا ليس من شأنك .. »

ركلت وسادة بطرف قدمها وقالت :

ــ « معك حق .. لقد تخطيت حدودي .. »

ثم نهضت وقامت بانتقاء أسطوانة ووضعتها على الفونوغراف فتصاعد صوت (جون لينون) الساحر يقول :

ــ *« تخيل لو لم تكن هناك أوطان .. ربما حسبت أنني حالم لكنني لست الحالم الوحيد .. أتمنى لو أنك انضممت لنا يوماً ما .. فيصير العالم واحداً .. »*

(دونّا) تحب أغاني البيتلز ..

(دونّا) تحب أنجيلا ديفيز ..

أم هي صديقتها ؟

قالت لي وهي تثب من جلستها الأرضية (وهو عمل شاق فعلاً) :

ــ « سوف أبدل ثيابي .. أرجو أن تعتبر الدار دارك .. »

طبعاً لن أعتبر الدار داري لسبب بسيط هو أنها ليست دارك أنت أيضاً . كانوا يقولون لنا إن وعد (بارليف) هو وعد ممن لا يملك لمن لا يستحق .. لماذا أتذكر هذه المقولة الآن ؟..

هكذا جلست وحدي على الأرض أتأمل الشقة محاولاً تخمين ما أضافته هي وما هو لصديقتها منذ البداية .. من الوارد أن يكون كل شيء من ذوق صديقتها ..

جواري على منضـــدة صغيرة أقرب إلى قفص مصنوع من السلك ، كانت هناك كاميرا بولارويد من الطراز الذي كان محبباً جداً في ذلك الوقت ، ومجموعة من المجلات الإسبانية .. يمكن أن أمارس هواية مشاهدة الصور لأشعر بما يشعر به الطفل ذو الأربع السنوات الذي لم يتعلم القراءة بعد ...

رحت أفتش عن مجلة مليئة بالصور المسلية ..

هنا وجدت ذلك الدفتر تحت كومة المجلات .. فتحته في شيء من الملل ، فوجدت أنه ألبوم صور .. هناك الكثير من الصور معظمها لدونّا .. إنها تقف مع صديقة لها في الشمس تضحكان بعض الصور بكاميرا البولارويد التي تثبت كم كنت [illegible] ناجحة

جدًا فى ذلك الوقت . هنا تقف مع شاب مثقف ممتلئ بالرجولة ومهندس ناجح .. شيء يحدثنى بأنه هو مانويل .. من الواضح أنها سعيدة جدًا ..

فجأة تصلبت ...

هناك مجموعة من الصور .. غير واضحة وبالأبيض والأسود .. نعم .. لكن معرفة محتواها ليس صعبًا ...

وهنا شعرت بالعلامة التى لا تدحض: انتصاب الشعر على ساعدى ، فليس فى رأسى شعر يكفى لينتصب ..

ما معنى هذا ؟

-6-

سيدى العظيم (جويا) ..

أول اسم مهم فى تاريخ إسبانيا الفنى منذ عصر (فيلاسكويز) .. إسبانيا المريضة التى زحف عليها الصدأ وأتلف مفاصلها الغباء والفساد ..

تشارلز الرابع يقضى وقته بين تعذيب الفلاحين ، وبين اللهو فى البلاط وصيد الأرانب واحتساء الخمور .. وجويا الفنان المليء بالحيوية غليظ العنق والشفتين يحمل موهبته .. سلاحه الوحيد . لكنه يحمل كذلك الذكاء والنظرة الثاقبة والثقافة . شجاع مقتحم على درجة من الفظاظة على غير ديدن الفنانين . بدأ من أسفل أسفل السلم الاجتماعى الاسبانى حتى صار رسام الملوك ..

نعم .. لقد عرف الكثير ..

مغامرات لا حصر لها بعضها مجنون تمامًا ، منها اقتحام أحد الأديرة ليختطف فتاة كان يحبها ، ولجأت إلى الدير .. وذات مرة أخرجوه من مصرف ماء وخنجر مغروس فى ظهره .. هذا النوع من المغامرات كان معتادًا فى حياته ..

عاش بين الأثرياء والامراء ، لكن ظل يحمل داخله ذلك الجزء الذى يعج بالمتسولين واللصوص والحواة والدجالين والعالم السفلى الخطر ، وكان يستحضره ليرسمه متى أراد .

الأعمال الأولى لسيدى العظيم لا تدل على موهبة صارخة ..

السبب هو أن أغلب ما كلف به كان مواضيع دينية ، وهو لم يكن شخصا متدينا ، لذا كان عاجزا عن رسم المواضيع الدينية على حريته ... السبب الثانى هو أن موهبته نضجت ببطء شديد واستغرقت وقتا طويلا ..

تزوج فى سن التاسعة والعشرين .. سيدة بيت حقيقية ..

وهكذا ظلت فى البيت فى حالة مزمنة من الحمل . ان عدد الأطفال الذين أنجبهم يتحدى الوصف .. عشرين طفلا مات منهم عدد لا بأس به . بينما واصل هو حياة الصعلكة بين الغجر والبوهيميين فى ساراجوسا .

وعندما ظفر بالعمل كرسام فى البلاط الملكى ، فإنه لم يضيع وقته فى تقليد لوحات روبنز كما فعل كل الفنانين ، بل راح يستوحى الروح الإسبانية ويقدمها فى لوحاته .. وكانت ضربات فرشاته سريعة عنيفة تعكس عصبيته الشديدة ونفاد صبره ..

لكنه برغم هذا لم يكن قد رسم بعد عملاً يسمو لمرتبة الخلود أو يذكرنا باسمه .. مجرد رسام جيد جدًا ..

انه الآن فى الثانية والأربعين .. لم يعد أحد يشك فى موهبته العنيفة الكاسحة . لكن بالطبع كانت طبيعته الحادة النارية كفيلة بأن تجلب له أعداء بعدد شعر رأسه .

لقد تشاجر مع كل شخص فى العالم تقريبًا .. وكانت صحته سيئة بسبب تبديدها بلا حساب فى شبابه الأول . لذا كانت حياته فترات من العمل بلا هوادة ، ثم المرض والجلوس فى البيت ..

فى هذه الحالة الصحية والمعنوية السيئة ، نفذ أول مجموعة من التهشير (كابريشوس) .. كمية هائلة من السخرية من المجتمع الإسبانى ونسائه وأثريائه ..

لقد حققت هذه المجموعة نجاحا ساحقًا وابتاعها كثيرون من أصدقائه ، وهم لا يعرفون أنهم المقصودون بهذه اللوحات !.. أى انه يمكن القول دون خطأ كبير إن بعض الناس ابتاعوا صورهم وهم لا يعرفون !

لم يلحظ التشابه سوى طرف واحد .. طرف خطر ..

الكنيسة !

لقد لاحظت نوعًا من السخرية منها فى الرسوم ، وفى ذلك الوقت كانت غضبة الكنيسة تعنى محكمة التفتيش .. ومحكمة التفتيش تعنى ... .

لقد بلغت هذه المحاكم درجة ممتازة من الخبرة بعد ما تدربت أعوامًا طويلة على المسلمين واليهود ، لهذا كان الوقوع فى يدها يعنى تمزيقك إربًا .

هنا تدخل الملك الذى كان يحب سيدى .. قال للكنيسة إن هذه اللوحات بناء على تعليماته هو ، وهكذا انتهت المشكلة بلا تبعات ..

على سبيل الاعتراف بالجميل قام سيدى بتزيين كنيسة (سان أنتونيو) القريبة من مدريد .. وقد أخذ راحته تمامًا فى رسم الجدران .. رسم فتيات جميلات وراقصات وأطفالا عراة .

لم يهتم الملك كثيرًا بهذا ومنح سيدى لقب (رسام البلاط الأول) . أما الملكة فأهدته لوحة لفلاسكويز .. الحقيقة أنها كانت اللوحة الوحيدة التى امتلكها فى حياته ..

جاء الفرنسيون إلى أسبانيا ، ومعهم مذابحهم وأهوال الحرب ..

وتغير يقينه بأشياء كثيرة .. لهذا أبدى الولاء للملك الجديد ، لكنه احتفظ لنفسه بخواطره ورسم الكثير منها ..

عندما غادر إسبانيا إلى بوردو ، كان قد بلغ من الكبر عتيًا ..

كان أصم تمامًا ، لكنه لم يتوقف عن الرسم على أى شىء يقع فى يده .. كان يردد :

ـ « أساتذتى فى الرسم هم رمبرانت وفيلاسكويز ... والطبيعة ! »

الأول علمه استخدام عينيه والثانى علمه استخدام يديه .. الثالثة علمته كل شىء آخر ..

ـ « الأساتذة يتكلمون عن الخطوط ولا يتكلمون عن الكتل أبدا ، لكن أين ترى الخطوط ؟... لا توجد فى الطبيعة خطوط وإنما الضوء والظلال .. »

كان مولعا بعدم الاعتدال .. لو كانت المرأة التى يرسمها قبيحة فإنه يجعلها كابوسًا . ولو كانت جميلة فإنه يجعلها أسطورة .. الحياة .. الحياة هى كل شىء ..

ـ « فليذهب الجمال إلى الجحيم !! »

نعم .. فهو لم يحاول قط أن يجمل موديلاته أو يضيف لهم ما ليس فيهم ..

عندما رسم أسرة الملك لم يكن يحب أفرادها لذا رسمهم مريعين ، وكما وصف اللوحة أحد المعاصرين :

« يبدون كأسرة بقال فاز باليانصيب ! »

بينما حبه للأطفال بدا واضحًا إذ رسم أطفال الأسرة كالملائكة

إنه أكثر رسم وضع فى لوحاته سخريته وقسوته وكراهيته للبشر ...

باختصار . تلك الكائنات المريعة المجنونة فى لوحاته لم تمثل بالضبط من كان يرسمهم ..

كانت تمثل (جويا) نفسه ...

-7-

سمعت صوت الباب يفتح فأجفلت ..

سمعت صوت خطوات ثم ظهرت فتاة صغيرة الحجم رقيقة جدًا ، لها ذلك الشعر الغلماني القصير على طريقة (لا جارسون) التى يترجمها العقد بالـ (غلامة) . كان يناسبها جدًا فقد بدت كشيء صغير شقى ...

لكن عينيها الخضراوين الواسعتين كانت تنظران لى فى دهشة .. ربما فى شيء من التذمر كذلك ...

فى يدها حقيبة صغيرة يبدو أنها مليئة بالثياب . لا أحتج لذكاء كبير كى أعرف أن هذه (إيزابلا) .. كانت خارج مدريد وعادت فجأة .. هذه الأشياء تحدث ....

قالت لى فى لهجة حيرى :

ــ « دونًا ؟ »

ــ « هنا .. هى آتية حالاً .. »

ــ « كينى سون استيد ؟ »

ــ « صديق .. »

بالطبع لم تفهم ما قلته بالإنجليزية بينما فهمت أنا ما قالته بالإسبانية . نظرت لي محاولة فهم ما أنا حقًا ... بالطبع يستعمل الغربيون لفظة (صديق) بمعنى أكثر حرارة مما نستعمله نحن ، ومعنى وجودى هنا أننى حبيب (دونًا) الجديد .. هنا نأتى لبعض الاسئلة التى دارت بذهنها: ماذا أصاب دونًا كى تحب شيئا مريعًا مثلى ؟. هل جنت بهذه السرعة ؟

كانت ترمقنى من فوق لتحت وأنا أسمع هذه الأفكار تدوى فى رأسها بالمعنى الحرفى للكلمة ، حتى كدت أرجوها ان تخفض صوت أفكارها قليلا فلا لزوم للصراخ .. يا آنستى صديقتك حرة فيمن تحب أو لا تحب . وكل حبة فول لها كيال .

شعرت بالدوار للحظة واهتزت صورتها فى عينى ، ثم استجمعت وعيى وأخذت شهيقًا عميقًا ...

قالت من بين شفتيها كأنها تبصق :

ـ « جوارا ! »

تركتنى ودخلت إلى ما أعتقد أنه غرفة النوم الخاصة بدونًا .. وسمعت محاورة بالأسبانية بدأت بالعبارة التالية :

ـ « دونًا ... كى آس استى أومبر إن ميا ابارتامنتو ؟ »

طبعاً يسهل معرفة معنى (أومبر) و(أبارتامنتو) و(ميا) فلديهم شبيه لهم فى الإنجليزية ، والنتيجة بعد ملء الثغرات هى :

ـ « من هذا الرجل الذى فى شقتى ؟ » أو « ماذا يفعله هذا الرجل فى شقتى ؟ »

باقى المحادثة صعب .. تتكلمان بسرعـة ... لكنهـا مشادة بالطبع .. أسمع كثيرًا لفظة (إمبرا) .. لابد أن هناك الكثير من :

« بأى حق ؟ »

و« أنا حرة فيمن اصطحبه .. »

لا يا حبيبتى .. لا تنسى أن هذه ليست شقتك « ... ثم من أين تأتين بهؤلاء المرعبين ؟.. لقد انحدر ذوقك جدًا ... »

« هذا الحيوان لن يظل هنا »

كنت أفكر بسرعة ..

يجب أن تكون هذه الصور معى ، لأننى أعتقد أن دونًا ستنكر أنها موجودة بعد هذا .. سوف أحتفظ بها وسوف أخبرها فيما بعد أنى شعرت بإعجاب لدرجة أننى نسيتها فى جيبى

هكذا لم أتردد ...

على خلفية المشاجرة الإسبانية التى تدور بصددى (جميل جدًا أن تكون موضوع مشجرة بين حسناوين اسبانيتين) مددت يدى فى ألبوم الصور ، وانتزعت الصور من أركانها .. كنا فى الوقت الذى تحشر فيه الصور فى الألبومات بين أركان ورق أربعة ... هذا جعل الأمر سهلاً فعلاً ..

دسست الصور فى جيبى . ثم نهضت مسرعًا واتجهت إلى الباب ..

أغلقته فى هدوء حتى لا يدوى صوت لسان القفل . لو ظهرت دونًا وألحت على كى أعود فسوف أفعل . لكنى أملك من الوعى اللغوى والسمعى ما يسمح لى بأن أعرف أننى أهنت وأننى ضيف غير مرغوب فيه أبدًا ..

هكذا أغلقت الباب ومشيت إلى المصعد ...

يمكننى دائمًا أن أمشى للفندق .. فنحن فى قلب المدينة بالضبط . لا أعرف أسعار سيارات الأجرة لكنى لن أحتاج لها على كل حال .. ربع ساعة من المشى لا أكثر ..

هبط المصعد فغادرته واتجهت إلى باب البناية ، لألقى تلك المرأة الفضولية الشبيهة بالغراب ترمقنى فى شك .. شك لمدة

أربع وعشرين ساعة سبعة أيام فى الأسبوع ؟.. هذه المرأة عبقرية فعلاً .. أحب هؤلاء المستمرين ..

— « بونا سيرا .. »

وخرجت إلى الشارع البارد المظلم نوعًا .. كان المطر قد بدأ يتساقط بخفة ، لكن ليس إلى حد يضايقنى فى المشى ..

مشيت وأنا أشعر بانتعاش غريب .. الجو البارد يساعدنى على المشى مسافات طويلة دون أن يضيق صدرى وتحتبس أنفاسى ..

هنا سمعت من ينادى اسمى بلكنة أجنبية ..

استدرت على الفور وقد أدركت أن (دونًا) لحقت بى .. بالطبع هى خفيفة يمكنها أن تسبقنى لو أرادت ..

— « رفعت .. ماذا حدث ؟ »

كانت قد بدلت ثيابها بالفعل . لكنها فى كل مرة لا تبتعد عن الأبيض أبدًا .. لابد أن هناك من غازلها يومًا ووصفها بالملاك ، فكرهت أن تتخلى عن هذا ..

قلت لها باسمًا :

— « ما حدث هو أننى بدأت أفهم الإسبانية على ما يبدو »

قالت فى جدية :

ـ « كف عن المزاح . لم يحدث شىء على الإطلاق لكنك رحلت كطفل غاضب .. لا أدرى لماذا تتعامل بهذه الطريقة .. »

ـ « لو لم أتعامل بهذه الطريقة لكنت صنمًا أو غطاء بالوعة .. هذه أقل درجة تميز الكائن الحى . قلت لك إنه لا داعى للذهاب لشقتك .. »

ـ « لكنك ستعود معى ؟ »

ـ « أفضل العودة للفندق .. لقد انتهت الأمسية .. »

ظللنا صامتين نمشى عبر الطرقات التى بللها المطر فصارت زلقة نوعًا .. كشافات سيارات تلتمع من وقت لآخر ، وهناك رجل فى مكان ما يغنى أغنية جميلة لا أفهم منها حرفًا ..

بعد لحظات من الصمت قالت :

ـ « لماذا ؟ »

ـ « لماذا أى شىء ؟ »

ـ « لماذا أخذت تلك الصور ؟ »

نظرت لها فى حيرة وحاولت أن أكذب لكنها قالت لى على الفور:

ـ « لم تعد الألبوم لمكانه .. خرجت من الغرفة فوجدته .. فتحته وبحثت فيه بسرعة فوجدت الأماكن التى تم انتزاع صورها . لا تقل إن غيرك فعل هذا لأننى كنت أقلب صفحاته عصر اليوم وكان كل شىء فى مكانه »

بهذه السرعة ؟.. وما أسرع ما تحول موقفى إلى لص ، بعد ما كنت أنوى تحويله إلى مقترض ..

مددت يدى فى جيبى وأخرجت مجموعة الصور التى سرقتها منها ، ودسستها فى جيب معطفها الأبيض ، فلم تعلق ولم تنظر لها بل ظلت تنظر فى عينى .. قالت من جديد :

ـ « لماذا ؟ »

ـ « الفضول قتل القط .. كان هذا أقوى منى .. »

ثم استدرت لها ونظرت فى عينيها الحوراوين اللتين تغلب سوادهما على بياضهما وقررت أن آخذ دفة الأسئلة هذه المرة . لديها الكثير لتجيب عنه :

ـ « دونًا .. ما معنى هـذه الصور ؟.. لا أعرف أى شىء سوى انك تعرفين الكثير جدًا .. تعرفين أشياء لا تريدين التصريح بها .. »

ثم تذكرت شيئًا فأضفت :

ـ « قلت ان بيتك الأصلى على ضفاف نهر مانزاناريس .. الآن فقط أتذكر اين سمعت هذا التعبير من قبل .. معنى هذا أن بيتك قريب جدًا من (كوينتا دل سوردو) .. منزل جويا الذى رسم فيه تلك الكوابيس ! »

الجـزء الثانى

معـرض الرعب

كان الكشاف يتحرك بين المشاهد المريعة ..

وشعرت بقشعريرة ..

أنا في معرض لم يره سوى قليلين .. معرض مخيف يضم الأسوأ من لوحات جويا .. الذى لم يجسر على عرضه على الناس ....

كل اللوحات السوداء لم يكن مكتوبا لها أن تعرض .. لكن هناك لوحات أكثر سوادا من غيرها ..

-1-

المطر ينهمر على قارعـــة الطريق ، لكن داخل المقهى دافئ مريح .. فقط ينزلق المـــاء على الزجـــاج من الخارج فتتشوه الموجودات وتبدو قادمة من عالم الكوابيس .. كشافات السيارات من بعيد محاطة بهالة تعمى العيون مع صلبان عملاقة . لأن الماء يلعب مع الزجاج لعبة (مرشح الصليب) السينمائية الشهيرة ..

(بلازا مايور) .. فى ساعة متأخرة من الليل لكنه ما زال مزدحم ورحبًا .. على الأرجح سوف ينتظر كل هؤلاء انتهاء الامطار ، فهى تضايقهم ليسوا من عشاق المطر مثلى حيث يمكن أن أركض فى الشارع فاتحا فمى مخرجا لسانى لأتذوق الماء السماوى الطهور ..

(دونا) تمشط شعرها بالمشط الذهبى الصغير ، ثم تمسك بمجموعة الصور وتقلبها ..

قالت في شرود:

ـ « جويا . قصة حب أضنتنى كثيرا وطويلا ... لقد كرهته قدر ما أحببته لأنه شغل حياتى جدًا وسيطر على كل أفكارى لوحاته لم تعد لوحات بل هى صور لأشخاص من معارفى ،

أشخاص أكلمهم وأمزح معهم وأتشاجر كل يوم .. لهذا بحثت عنه كثيرا ... فتشت عن كل خط رسمه وعرفت قصة كل لوحة له »

ثم تأملت الصورة الأولى وقالت :

ـ « يجب أن تفهم قبل أن تتكلم .. لقد جمعت معلومات كثيرة وأجريت بحثًا مضنيًا .. »

نظرت لها فى شرود بدورى ..

لماذا اخترتنى أنا من دون الناس ؟

هل كان لقاؤنا صدفة حقًا ؟.. يبدو لى أننى قطعة من لغز Puzzle كان مرسوما لها أن تستقر بالضبط فى الموضع الذى رسم لها ..

هل أنت الكينونة ؟.. وهل لو سألتك ستعترفين ؟

* * *

كانت الصورة الأولى بكاميرا بولارويد ..

أنت تعرف صور البولارويد .. رديئة جدًا وإضاءتها سيئة مع تشويه الموجودات لكنها تؤدى الغرض . هناك حشد جالس .. حشد من النساء يبدو أنهن عجائز يجلسن فى مكان مفتوح

(هل هذا صوت رعد بالخارج ؟

يبدو أنهن جالسات فى غابة أو واد ما ..

الصورة الثانية والثالثة لبعض وجوههن . إنهن عجوزات جدًا من طراز (أنف كبيرة ـ دمامل) إيـه .. الشكل الذى اصطلحوا على أنه شكل الساحرات أو القهرمانات .. حواجب كثة توشك على تغطية العينين . عباءات سـوداء ... يبـدو أنهن يغنين شيئا ما .. إحداهن تضحك كاشفة عن فم فيه سن واحدة ..

الصورة الرابعة لشىء مبهم .. كتلة من السواد ... .

الصورة الخامسة تريك شيئا أعجب .. هناك ما يبدو كأنها امرأة ..

لكنها تطير .. إنها تتخذ وضع القرفصاء ومستواها أعلى من الأرض .. لا تنظر للكاميرا وهناك دثار يخفى نصف وجهها ..

الصورة التالية هى تنظر للكاميرا فعلا لكنك ترى عينيها فقط ..

(المطر يزداد كثافة ويضرب الزجاج)

الصـورة السابعة تظهر شخصا ضخمًا .. شخصًا ليست له ملامح آدمية .. لولا رداءة الإضاءة لقلت إنه يبدو كالغيلان كما نتخيلها ... المكان فى هذه الصورة ومعظم الصور الأخرى يبدو كأنه من داخل كهف ..

هذه هى الصور التى سرقتها .. لابد أن هناك صورًا أخرى فى الألبوم لكن الوقت لم يتسع لفحصها ..

للمرة الأولى ألاحظ كتابة على ظهر الصور .. كتابة سريعة متعجلة بقلم جاف ..

F-17-D

E- 166 -E

مع دوائر سريعة وأسهم ..

قلت لها وأنا أتأمل الصور :

ـ « هذه صور تمثل ذات اللوحات السوداء لجويا .. نفس المواضيع تقريبًا .. »

نظرت لى وجمعت الصور من جديد ودستها فى جيبها ولم تقل شيئًا ، فأضفت :

ـ « فقط هناك فارق واضح .. هذه ليست لقطات فوتوغرافية للصور .. هذه لقطات للواقع ! »

هزت رأسها من جديد وأمسكت بقدح القهوة بيديها معًا ونظرت لى بعينيها اللتين لا يظهر فيهما بياض تقريبًا .

(لابد أنه الرعد فعلاً)

كانت تنتظر استنتاجاتى المتوالية الموفقة غالبا .. فأضفت:

ــ « رأيت صورًا كهذه من قبل .. هناك فرقة تمثيلية أعادت بالضبط تمثيل لوحات سلفادور دالى .. عندما التقط أحد المصورين هذه المشاهد بدا كأنه قام بتصوير لوحات دالى ذاتها ، لكن بالطبع يمكن معرفة الحقيقة من الظلال والتجسيم الواضح فى الصور .. قد يكون هذا هو الحل هنا .. »

لم تعلق فأضفت :

ــ « لكن .. ثمة شىء ما فى هذه الصور لا يوحى بأنه تمثيل .. ثمة شىء حقيقى أكثر من اللازم .. هل تعرفين (لافكرافت Lovecraft) ؟ »

ضاقت عيناها بمعنى أنها لا تعرفه . صعب أن يعرف لافكرافت من ليس أمريكيًا أو بريطانيا أو من قرائى .. فقلت :

ــ « كاتب رعب أمريكى شهير هو .. له قصة اسمها (موديل بكمان) .. تحكى عن فنان شهير اعتاد أن يرسم مشاهد رعب كابوسية ، ثم أدرك بطل القصة أن الرجل لم يكن يرسم من خياله .. كان يرسم موديلات حقيقية ! »

ثم شعرت برجفة تسرى فى عروقى وأنا أضيف :

ــ « ما تقوله هذه الصور ببساطة هو إن (جويا) لم يرسم اللوحات السوداء من خياله .. لقد رأى فعلاً هذه الأشياء التى رسمها !! »

هنا أضاء البرق الشارع بضوئه الكهربى المخيف ... .

-2-

لابد أن هذه الأحداث وقعت فى ذات الليلة ، عندما كنت فى شقة دونًا أتأمل الصور ..

هذه أشياء تعرفها فيما بعد وتحاول أن تجمع أجزاء الصورة ..

لابد أنه جلس فى تلك الكافتيريا القريبة من الشانزليزيه ينتظر طويلاً . لابد أنه دخن عدة لفافات من السجائر الجولواز قوية الرائحة .. لابد أنه فتح حقيبته السامسونايت وراح يراجع أوراقه ..

كان له ذلك الوجه الذى اصطلح على أنه غير مريح . لا يوحى بالثقة بالتأكيد ..

إنه أصلع لكن شعره المتبقى طويل جدًا يتدلى على كتفيه على طريقة شكسبير .. وله عوينات رقيقة بلا إطار زجاجى . حول عنقه منديل مزركش ... شعره أبيض تمامًا برغم أن ملامحه تنم على أن سنه لا تتجاوز الخمسين ، وهذا يدعم نظريتى القديمة: الرجال الذين يبيض شعرهم بسبب الوراثة لا الشيخوخة سمجون ولا يوحون بالثقة .

باختصار كل شىء يمت له يبدو متعلقًا بعالم الفنون بشكل ما .. اسمه (ميشيل لاترين) .. كما خمنتم بالضبط هو ناقد فنى وخبير لوحات .

بعد دقيقة انفتح باب الكافتريا ودخل (سيمون) ..

(سيمون) ضخم الجثة أقرب إلى الموظفين فى إدارة حكومية ما ، وككل الفرنسيين له هاتان العينان الصغيرتان المتقاربتان الغبيتان .. عينان يصعب أن تصدق أنه يرى بهما ..

اتجه ليجلس أمامه .. جاءت الساقية الحسناء فطلب قهوة ..

لابد إنه جفف قطرات المطر على جبينه ... ونظر لميشيل متسائلاً ..

لابد أن ميشيل قال وهو يعبث فى أوراقه:

- « لا يبدو استقبالك حارًا .. لا تنس أننا لم نلتق منذ عامين .. منذ موضوع لوحة فريدا كاهلو ..

قال (سيمون) وهو ينظر حوله

ـ « أنا لا أتقاضى أجرى لأكون ودودًا لطيفًا .. والآن أرنى ما عندك .. »

نظر ميشيل حوله وتساءل :

ـ « هنا ؟؟ »

ـ « لا مشكلة .. أنت سترينى أوراقًا أو صورًا .. ليس المكان مزدحمًا ولا توجد كاميرات ، ولن تخرج مومياء فرعونية من حقيبتك .. لو أردت رأيى لقلت إن هذا أكثر الأماكن أمنًا فى باريس كلها .. »

أشعل (ميشيل) لفافة أخرى وقال :

ـ « ليكن .. أنت تعرف هذه الصور ؟ »

ومد يده بمظروف به صور فوتوغرافية ..

فتح (سيمون) المظـروف وراح يتأمل الصـــور .. صـــورة تلو أخرى ، ومع كل صورة يتجعد جبينه أكثر .. فأكثر .. حتى لما بلغ آخر صورة لم يعد هذا جبينه بل أكورديون عتيق ..

ـ « ما هذا ؟ »

قال ميشيل :

ـ « كما ترى .. أنت تعرف أسلوب الرسم هذا .. »

ـ « لا أظن .. »

فى شىء من السخرية قال ميشيل :

ـ « هلم . أعرف أنك لست مجرد بلطجى يضرب الناس .. إن عندك ثقافة فنية لا شك فيها .. على الأقل بحكم المهنة . »

قال (سيمون) وهو يأخذ لفافة تبغ لا شعوريا من علبة (ميشيل) :

ـ « هل معك نار ؟.... أ .. ربما لو فكرنا مليا لقلنا إنه أسلوب أسبانى .. »

ـ « بل هو أسبانى فعلاً .. والأهم أنه أسلوب جويا [1] »

قالها وهو يشعل له لفافة التبغ بقداحته ، ثم ركله ركلة خفيفة بطرف حذائه كى يصمت لأن الساقية أحضرت القهوة ...

لابد أنه لما انصرفت نفث (سيمون) سحابة دخان كثيف قال :

ـ « عم تتحدث ؟ . أنا أعرف كل لوحات جويا .. هذه لا تمت له بصلة . دعك من أنها لوحات مخيفة فعلاً .. لو كانت تخص جويا لكانت تنتمي للوحات السوداء ، وأنت تعرف أن اللوحات السوداء 14 لوحة فقط كلها في متحف برادو .. »

ضحك (ميشيل) فصار شكله أكثر سماجة ، وقال :

ـ « اهـا .. هـكذا ترى انك ما زلت تملك الخلفية الفنية .. اما أنا فخبير فني وأعرف ما أتكلم عنـه وقـد فحصت هـذه الصـور مرارا وتحـت المجهـر . وأؤكد لك انها لوحات جويا فعلاً .. »

لابد ان سيمون قال وهو يرشف القهوة :

ـ « لحظة .. السـؤال المهم هنا : من أين حصلت على هذه الصور ؟ »

ـ « إن لي عملائي في كل مكان . هذه الصور وجدها أحد رجالي في اسبانيا .. اشتراها من فلاح وجدها .. »

ـ « إذن من المستحيل أن نعرف من التقط هذه الصور .. »

ـ « هذا جزء مهم من خيط البحث .. نبحث عمن التقط الصور وهذا يقودنا إلى من وجدها وكيف .. هناك احتمالان ... »

قال سيمون :

ـ « الاحتمال الأول هو أن هذه لوحات أصلية كانت مخفية وظهرت .. لوحات رسمها جويا وتساوي الملايين . »

أكمل ميشيل الاحتمال الثاني :

ـ « الاحتمال الثاني أن هناك فنانا معاصرا يجيد تقليد جويا بالضبط .. وهذا الرجل كنز في حد ذاته لانه من نبحث عنه .. المزورون سلعة نادرة نقدرها جيدًا .. »

لابد أن سيمون بدأ يتحمس ومد يده ليأخذ لفافة تبغ أخرى ، لكن يد ميشيل قبضت على معصمه :

ـ « لا .. لا أنوي شراء علبة جديدة اليوم .. تمسك قليلا .. »

ثم بدأ يضع الخطط :

ـ « سوف تمولون رحلتي وإقامتي في إسبانيا بحثًا عن طرف الخيط .. يجب أن أعرف من التقط هذه الصور ومن [illegible]

جاء باللوحات .. يجب أن أراها وألمسها . فإن كانت بفرشاة جويا فقد وجدنا منجما من الذهب . طبعا لن يبيعه أحد . لذا سأطلب فريق منكم يأتى كى (يقنع) مالك اللوحات ببيعها وتتم عملية تهريبها من البلاد . أنا أعرف أنكم خبراء فى الإقناع وقد رأيت أساليبكم مع لوحات رمبرانت إياها .. أما إن كانت اللوحات بريشة من يرسم مثل جويا بالضبط فلسوف يسهل على بالمال أن أضم هذا الفنان لنا .. »

لابد أنه أغلق حقيبته ونهض وتناول معطفه من على المشجب :

ـ « أنتظر منك مكالمة خلال يومين تخبرنى إن كنتم مهتمين .. »

ـ « وإن لم نكن ؟ »

ـ « نحن فى باريس يا صاحبى .. باريس تعج بالمهتمين ... يمكن أن أجد ممولا تحت أى حجر أرفعه .. لكنى فعلا أحب العمل معكم .. »

-3-

والآن يا رفعت أنت لى ..

يمكنك أن تعتقد العكس أو تحسب أن إرادتك حرة ..

أمس راقبت ذبابة سقطت فى خيوط عنكبوت .. كانت فى البداية تتصرف بخيلاء وثقة . كانت تعتقد أنها حرة ، وأن بوسعها التملص بشىء من الجهد الصادق ..

ذبابة قوية مثلها لن تعوقها خيوط من حرير لا يمكن كتابة سمكها على الورق ..

لكنها بدأت تقلق .. بدأت تتوتر عندما عرفت أن كل حركة جديدة تقيدها أكثر ..

لابد أن ربع ساعة قد مر وهى تزداد تورطا ، وفى النهاية عرفت أن عليها أن تصاب بالذعر ..

بدأت ترفرف بجناحيها بقوة وتطن بصوت مسموع وعال ، حاسبة أن هذه الهستيريا سوف تحقق ما عجزت عنه ..

لا جدوى ..

لا جدوى ..

لكن كان لطنينها نتيجة واحدة أكيدة . هى أن الذبذبات وصلت الى العنكبوت .. لقد جاء من مكان ما ، ووقف على طرف النسيج يختبره بقدم .. تأكد من أنه متين ، ثم اتجه نحو الذبابة .. كأنه كابوس يمشى على ثمان أقدام .. لهذا يصاب الناس بالأراكنوفوبيا .. هذا المخلوق جدير بأن يستأثر لنفسه بنوع كامل من الفوبيا ..

بحركات رشيقة مدروسة راح يدور حولها ليحكم الكفن الحريرى . دورة . دورتان . ثلاث دورات ..

الخيط يخرج ويلتف أكثر والذبابة لم تعد مرئية تقريبا .. وفى النهاية دنـ منها ليحقنها بالسم .. وسرعان ما همدت وبدأت عملية الامتصاص ..

غدًا تهب الريح وتهدم جزءًا من النسيج .. لو فتحت هذا الكفن لوجدت هيكل ذبابة بعد ما امتص منها عصارة الحياة ... هيكلاً يتهشم لو نفخت فيه ..

الذبابة المغرورة التى حسبت أنها تملك إرادتها ..

لكن الغرور كان مفيدًا للعنكبوت .. لابد أن تجن الذبابة وتحسب نفسها حرة ..

أنت لى يا رفعت ..

لم تعد قادرًا على الفرار أو التملص وكل يوم يغرسك أكثر فى هذا المستنقع .. وأنت مغرور .. هذا يفيدنى بلا شك ..

لكنك لست أحمق . سوف تنتبه يومًا .. أسرع من الذبابة وتحاول أن تفر بهستيريا ..

لكنى سأكون هناك عند أطراف النسيج أتأكد من أنه سليم .. ثم أزحف نحوك .. سأحقن قلبك العجوز بالسم ..

أعرف أنك لست وحيدًا ..

هناك ملاك حارس يراقبك .. أنا لا أعرف من هو ولا كيف يبدو لكنه موجود .. شعرت به كما أشعر بأشياء كثيرة أخرى ..

لكنه لن يتمكن من نجدتك ..

أنت لى يا رفعت ..

سوف أذيب بإنزيماتى كل عصارة حيوية وكل نسيج فى جسدك .. كل خبرة .. كل ذكرى .. كل هذا سيتحول إلى سائل رائق صاف ، أمتصه أنا فى النهاية ..

لن يبقى منك سوى قشرة مخيفة فى كفن من حرير

فقط عليك أن تستمر معى .. أن تطيعنى .. أن تهتم بما أهتم به ..

سوف تأتى للحظة يا رفعت ..

أعترف أنك مسل وأنك على قدر من الذكاء والعلم . لكن هذا يجعلنى أكثر حماسة فى مهاجمتك .. إن ما تملكه من مرايا سيكون لى فى النهاية ..

أنت لى يا رفعت ..

فلا تقاوم كثيرا . كلما قاومت أصدرت صوت طنين يجعلنى أتوجه لك .. أعرف مكانك ..

أنت لى يا رفعت ..

يا لك من مسكين ...

-4-

كان السؤال المنطقى الذى وجهته لدونا هو :

ــ « من التقط هذه الصور الغريبة ؟ »

ظلت صامتة مترددة .. كأنها تفتش عن كذبة مناسبة .. أخرجت المشط الذهبى الصغير ومشطت شعرها فى عصبية .. فقلت لها على الفور:

ــ « لا داعى للكذب .. أنت أو صديقتك التقطتها .. الكاميرا البولارويد كانت هناك فى شقتك .. »

قالت فى خبث :

ــ « ليست الكاميرا الوحيدة فى إسبانيا على كل حال .. »

ــ « لكنك دونَ الوحيدة فى إسبانيا .. واهتماماتك تشى بك .. »

ابتلعت ريقها وأعادت المشط لحقيبتها وقالت :

ــ « لنقل إننى أعرف أشياء .. مثلاً هناك لوحات سوداء لجويا لم يرها أحد من قبل .. »

ــ « وأين هى ؟ »

ــ « مخبأة بعناية ، لكنى أعرف مكانها .. وقد التقطت لها بعض الصور .. »

ــ « وأين الصور ؟ »

ــ « سُرقت منى .. لا أعرف كيف ولا متى .. كنت فى المتحف ونسيت حقيبتى بعض الوقت .. لما عدت وجدتها مفتوحة ولم يسرق منها شىء .. لكن الصور اختفت . أعتقد أن هناك من يعلم أننى أعلم .. »

ــ « طبعًا تتهمين مانويل أو بيزابلا بأن أحدهما تكلم أكثر من اللازم .. »

ــ « ربما ... لكن ليس لدى ما يكفى لتوجيه اتهام .. »

* * *

سوف تأتى اللحظة يا رفعت ..

أعترف أنك مسل وأنك على قدر من الذكاء والعلم ، لكن هذا يجعلنى أكثر حماسة فى مهاجمتك .. إن ما تملكه من مزايا سيكون لى فى النهاية ..

أنت لى يا رفعت ..

* * *

رحت أفكر بعض الوقت ثم سألتها :

ــ « هل يمكن القول إن هناك بقايا من منزل جويا المسمى (كوينتا دل سوردو) ؟.. هل هناك أطلال ؟ »

ــ « ليس بالضبط .. لا يمكن أن أشرح من دون أن أكشف كل أوراقى .. »

ثم أخرجت المشط وأعادت تصفيف شعرها كعادتها كلما توترت ، وقالت :

ــ « (رفعت) ... لا أريد أن أفقد صداقتك لكنى كذلك لا أريد أن أكشف عما لا أريد كشفه .. أتمنى أن تعود عقارب الساعة بضع دقائق قبل أن تجد هذا الألبوم اللعين .. »

هذا غريب ويريحنى كثيرًا ..

هى لا تريد توريطى فى القصة بأى شكل ، ولا تريد أن أعرف شيئا .. إما أن هذه مناورة بارعة وإما أنها صادقة ، وبالتالى لا علاقة لها بموضوع (الكينونة) الذى جاء بى إلى هنا ..

قلت باسمًا :

ــ « ومن قال إننى مهتم على الإطلاق ؟ لتكن اللوحات السوداء أربع عشرة أو ألفًا .. ليكن وراءها سر غامض أو هى مجردة من الألغاز كطبة صلصة .. لا يعنينى الأمر شخصيًا »

أعادت المشط لحقيبتها وابتسمت بدورها ..

كانت الأمطار قد توقفت بالخارج لكن الظلام كان دامسا .. كعادة الدول المتقدمة تسرب المطر إلى مكان ما فلم تعد هناك سوى طرقات زلقة لامعة تفوح منها رائحة البلل . قالت لى فى شيء من الحرج :

ـ « يبدو أن أحدنا سيوصل الآخر .. هذه المرة أنت ستوصلنى لدارى لأننى لا أحب أن أعود وحدى فى وقت كهذا .. »

كان على أن أفعل ذلك ، برغم أننى ما زلت أضل طريقى فى هذه المدينة .. سوف أحاول التذكر والسؤال ، لو وجدت شخصا يمكن أن أسأله ..

* * *

كان يمكن أن يمضى كل شيء بسلاسة ، لولا ما حدث بعد ذلك ..

اتصلت بى قرب المساء بعد يومين ، وقالت إنها تنتظرنى أمام الفندق .. انت تعرف أن الفندق يقع بالضبط أمام متحف (برادو) . أى أنها متواجدة هناك معظم اليوم ..

ارتديت ثيابى بسرعة ، ووضعت سترة على كتفى ثم استقللت المصعد إلى اللوبى .

خرجت من الفندق وكان الجو باردًا بتلك الطريقة المنعشة التى أحبها . هناك رأيتها واقفة لابسة معطفا أبيض آخر كالعادة مع حذاء ذى رقبة بنفس اللون ، ولكنها لم تكن وحدها .. كانت منحنية على نافذة سيارة سوداء من طراز (سيات كوردوبا) تكلم السائق ..

ماذا حدث ؟. إنها تتكلم بحماسة وعصبية .. بل هى مشادة .. بالفعل .. هى تتشاجر مع شخص داخل السيارة ..

منحنية تتكلم .. أدنو أكثر من السيارة وأقف على بعد أقدام لا أعرف إن كنت أتدخل أم لا .. قد يكون أمرا شخصيا .. قد يكون مانويل يحاول استعادتها .. لا أدرى .

كنت قريبًا جدًا لكنى أقف خلف مجال رؤية الجميع .. رأيت أن الرجل الذى يكلمها أصلع الرأس ويطيل ما بقى من شعره - الأشيب تماما ـ على الكتفين ، ويضع نظارة سوداء ...

(دونًا) تعترض .. (دونًا) ترفض ..

فجأة انفتح باب السيارة الخلفى ، ومنه برزت ذراع مشعرة غليظة . ككلابات الكلبوريا أطبقت اليد على معصمها [illegible] ففطنت إلى أنه يجرها داخل السيارة .. هذه عملية خطف تتم أمامى !

نظرت حولى فلم أر أحدًا قربنا فى الميدان اللعين الذى هو فى كل الأوقات أكثر مناطق مدريد ازدحامًا .. هذه هى القاعدة .. ازدحام الشوارع يتناسب عكسيًا مع حاجتك للناس .. فجأة مات الجميع .. ومن هم موجودون بعيدون جدًا ..

كان تصرفى أسرع من تفكيرى . إذ سرعان ما أخرجت القداحة من جيبى وبلمسة واحدة زدت تدفق الغاز منها .. لما صار اللهب عاليًا جئت من الخلف . وهرعت أضع الشعلة تحت الساعد المشعر .. لابد أن الألم كان مريعًا لأنه أطلق صرخة كرجل يذبح .. ثم انسحب الذراع إلى الداخل فجررت الفتاة من يدها مبتعدين ...

بسرعة كنا نعود إلى الفندق بينما عوى محرك السيارة . وهى تنطلق من حالة التوقف إلى السرعة الرابعة فجأة .. وسرعان ما توارت فى نهاية الشارع ...

فى لوبى الفندق كان بعض الموظفين مندهشًا من هذه الضوضاء . وقد راحوا يتبادلون النظرات وبعضهم وقف معنا فى فضول . الآن لا نريد زحامًا لهذا جاء الزحام ...

قلت لها لاهثًا :

— « لم التقط رقم السيارة لكنها (سيات كوردوبا) سوداء .. سوف أبلغ الشرطة أو ليتك تفعلين هذا لتريحينى من البحث عمن يتكلم الإنجليزية ..

من الغريب أنها لم تبد مذعورة لهذا الحد .. كانت أكثر ثباتًا منى ، وقالت فى هدوء:

— « لا تفعل .. هذه مشكلتى وسوف أسويها .. »

صحت فى عصبية :

— « من هؤلاء ؟.. كنت تتكلمين معهم فى محادثة طويلة .. »

— « لا عليك .. شكرًا لتدخلك لكن ثق أن شيئًا لم يكن ليحدث .. »

— « ما رأيته هو عملية خطف .. هل هذا غير مرعب بقدر كاف ؟ »

أخرجت مشطها الذهبى الصغير لتمشط خصلات شعرها المتناثرة . ثم قالت :

— « قلت لك ألا تقلق .. هل رأيته ؟ »

ـ « من كنت تكلمينه كان أصلع أشيب يتدلى شعره على كتفيه .. يبدو كزعماء العصابات .. ليس بأفضل رجل أمنحه ثقتي .. »

نظرت في عيني وقالت :

ـ « لنتفق على شيء ... هذا الرجل شرير ولسوف يحاول الاتصال بك .. يجب ان تتجنبه كانه الشيطان .. »

-5-

قالت لي (دونا) وهي ترشف شيئاً بارداً في كاس ..

ـ « انت تفهم أنني أعرف مكان اللوحات السوداء التي رسمها جويا ولا يعرفها العالم .. هناك من يعرف أنني أعرف ، ولهذا أتعرض لخطر مزمن ... ليست هذه أول مرة ولن تكون الأخيرة .. »

ـ « تقصدين أنهم يريدون شراء ما تعرفين ؟ »

ـ « بعضهم .. وبعضهم يريد الحصول على المعلومات دون شراء .. »

ـ « أي أن هذا الرجل يعمل مع تجار لوحات أو مهربين أو شيء من هذا القبيل .. »

ـ « هو كذلك .. أنت تفهم السيناريو الذي رأيته .. كانت محاولة اقناع تجاوزت الحدود .. »

ـ « لو نجحت لكانوا الآن يغرسون عصي البامبو تحت أظافرك أو يكتبون اسم (جويا) بالمسكين السـ

ضحكت كثيرًا فاشتبكت أهدابها السوداء حولى ، وقالت :

ـ « أنت ترى الكثير من الأفلام .. ليس الأمر بهذه الخطورة .. مافيا اللوحات شىء والجثث الغارقة فى الدم شىء آخر .. من النادر أن يبلغ عملهم هذا العنف ، وهم لا يحبون الدماء لأنها تفسد عملهم وتجذب الشرطة .. هذا عمل فنانين يا عزيزى ، والفنانون يكرهون الدماء ... »

ـ « كل الناس قد تتحول إلى وحوش إذا تعلق الأمر بالملايين ... هذا ما تعلمته من الحياة .. »

ساد الصمت ثم قالت لى :

ـ « أنا بحاجة للعودة إلى مسقط رأسى للاطمئنان على بعض الأمور .. سوف أتركك هنا وحدك . كما قلت لك سوف يحاول هذا الرجل الاتصال بك ... إنهم رأوك وعلى الأرجح يعرفون أنك تعرفنى .. على الأرجح يعرفون مكانك كذلك .. عندما أرحل لن يجدوا سواك .. وسوف يظهر هذا الرجل ذو اللهجة الفرنسية . يجب أن تراوغه أو تفر منه .. »

ابتلعت ريقى بصوت مسموع ..

ما دخلى أنا بهذه اللعبة ؟.. ولماذا يجب أن أواجه هؤلاء القوم ؟

مدت سبابتها لتلمس أرنبة أنفى مداعبة وقالت :

ـ « توتر .. توتر .. أنت صديقى أليس كذلك ؟... »

ـ « بلى .. »

ـ « إذن أنت مدين لى بمجاملة بسيطة .. لا أريد شيئًا آخر سوى هذا .. تملص منهم .. »

* * *

موعد رحيلها كان الثامنة مساء ..

وبرغم أننا لا نمضى معًا أكثر من خمس ساعات يوميًا أو أقل ، فإننى شعرت بأننى صرت وحيدًا فى إسبانيا كلها .. إن موعد انتهاء إجازتى قريب على كل حال .. لكننى ... أن تعود

دونًا قبل أن أرحل .. تعود قبل أن أرحل . وفى الوقت ذاته أرجع لمصر قبل أن يظهر هواة اللوحات المتحمسون هؤلاء ..

قضيت اليوم كله فى زيارة معالم مدريد وصممت ألا أرجع لغرفتى بالفندق قبل منتصف الليل .. سوف يقلل هذا من فرصة مقابلة هؤلاء ..

عند منتصف الليل فتحت باب غرفتى ، ودخلت . أضأت النور الكهربى .. ومنذ اللحظة الأولى عرفت أن هناك من تسلل للغرفة .. الرائحة وتلك الهالة الذاتية التى تشع من الناس .

إما أنهم جاءوا منذ ساعة مبكرة أو هم فكروا فى الشىء ذاته مثلى .. كنت أختار أسوأ المواعيد طرا لأذهب للمصرف متوقعا أن الناس كلها فى عملها .. هنا أجد أن كل الناس فكروا فى الشىء ذاته ..

ـ « تعال يا دكتور .. »

بالإنجليزية ذات المذاق الفرنسى الواضح ..

كان ذلك الرجل الذى رأيته فى السيارة يجلس على أحد مقاعد الأنتريه الصغير ، وقد وضع ساقًا على ساق ، بينما كان رجل

ضخم نوعًا غليظ الملامح يقف جـوار باب الحمام .. لم يكونا مسلحين ، بل بدا الأمر كأنهما صديقان قديمان لى ...

تراجعت خطوة نحو الباب ، فقال لى الرجل الأول :

ـ « لا أنصحك بالرحيل .. إن ما سأقوله لن يستغرق وقتًا وهو ذو طابع ودى .. »

وأشار لى كى أجلس .. لم أجد ما أفعله سوى أن جلست متوترًا على حافة الفراش ..

أخرج الرجل علبة سجائر (جولواز) وأشعل لفافة قوية الرائحة وقال :

ـ « معذرة .. لم أستطع أن أدخن قبل هذا من أجل الرائحة .. أنت تفهمنى طبعًا .. أنا (ميشيل لاترين) خبير لوحات .. فرنسى طبعا كما لابد أنك لاحظت .. سؤالى هو: أين الآنسة الحسناء التى كنت ترافقها والتى تسببت فى سوء التفاهم البسيط مع صديقى ؟ »

نظرت إلى صـــديقه فوجدت أنه يتحسس معصـــمه وقد بدت عليه علامات الألم ... اه .. هــذا هــو الأخ الثــور محــدود الذكاء الذى يحمل ثأرا .. نمط معروف جدًا .. عنده كل الأسباب كى يحطم رأسى . وسوف ينعم بهذا لولا أن صديقه يكبح جماحه مؤقتًا ..

ــ « السؤال الثانى هو : ما الذى تعرفه عن لوحات معينة ؟ »

تصاعد الدخان فوقى يملأ هواء الغرفة ..

قلت وأنا جالس متظاهرًا بالثقة :

ــ « لا أعرف .. قالت إنها ذاهبة للريف لبضعة أيام .. لا أعرف كذلك عن أية لوحات تتحدث ؟ »

ــ « لقد راقبناها جيدًا ونحن نعرف يقينًا أنها معك معظم اليوم .. بالأحرى لا تقابل أحــدًا آخــر فى الوقت الحالى .. هذا يجعلك مرشحًا بقوة لتعرف .. »

قلت فى برود :

ــ « لكنى لا أعرف .. أرجو أن تكون قد تلقيت إجابتك وترحل .. »

وتوقعت أن تنفجر البراكين وتأهبت لأن أصرخ مستغيثًا ..

لكنه نهض بلا كلمة أخرى ، ومعه تأهب للرحيل الرجل الذى احترق ساعده .. واتجها للباب .. توقعت أن تكون هذه حيلة صبيانية أخيرة كما يحدث فى السينما ، كأن يستدير لى فجأة ويضع مدية تحت حنجرتى ليبدو مرعبًا .. لكنه كان أعقل من هذا ..

فقط وقف فى فرجة الباب المفتوح ونظر لى بعينيه الضيقتين الكريهتين من وراء زجاج عويناته ، وأخرج قطعة ورق من جيبه وسجل عليها رقمًا ما :

ــ « هذا هو رقمى فى مدريد لو أردت أن تغير رأيك .. صدقنى أنت لا تدرك ما تتعامل معه .. أنت تتصرف ببراءة تامة ، لكننى أنصحك أن تزيح أية أسرار عن كاهلك وتعود لوطنك فورًا .. هذا هو الضمان الوحيد لسلامتك . »

-6-

عبر سماعة الهاتف جاء صوتها :

ـ « أنا فى مشكلة حقيقية .. أنا بحاجة لك .. »

كنت فى غرفتى أتربع على الفراش ، وقد فتحت الشرفة لأطرد رائحة الدخان الكريهة .. لابد أنهم يصنعون سجائر الجولواز هذه من الجوارب القديمة العطنة . كل هذا وأنا مدخن فبم يشعر الذين لا يدخنون عندما يشمونها ؟

قلت لدونا بصوت هادئ :

ـ « لقد تلقيت الزيارة التى تنبأت بها .. »

ـ « لا تقل تفاصيل .. لا تقل تفاصيل .. لا أضمن ألا يكونوا قد دسوا جهاز تنصت فى غرفتك .. أنا بحاجة لك »

شعرت برهبة .. كادت القصة تنتهى لكنها الآن تحاول إقحامى فيها بقوة . ولو رفضت فلن أستطيع النظر فى المرآة باقى حياتى . قلت لها :

ـ « ماذا تريدين ؟ »

ـ « لا تفاصيل .. لكن أريدك معى .. هنا .. »

ـ « فى ذلك المبـنى ... »

عادت تقاطعنى بحزم :

ـ « قلت لك لا تشرح شيئاً .. المسافة أقل من ساعة خارج مدريد .. أرسلت لك سيارة سوف تكون عندك خلال ساعة من الآن .. فضية اللون .. السائق اسمه (بدرو) ... انتظره خارج الفندق بعد ساعة لو كنت موافقًا .. »

وقبل أن أجد فرصة للتعليق وضعت السماعة ...

جلست فى الظلام أفكر فى هذا الذى يحدث . الساعة الثانية بعد منتصف الليل وهانذا أجد نفسى مطالبا بمغامرة لا يعلم إلا الله ما هى . دعك من أنى لا أعرف كم من الوقت تستغرق ، وهل أحتاج إلى ثياب أم لا ..

لحظة من فضلك ..

« ارفض زيارتها فى دارها الثانية ... فأنت لن تعود .. »

« الأشقياء ليسوا كاذبين دائما .. قد يقولون الصدق أحيانًا .. »

من قال هذا ؟.. هذه تحذيرات الكينونة .. كالعادة تحذيرات غامضة جدًا . لكنك فى لحظة بعينها تفهم المقصود منها ... لو كان المقصود بـ (هى) دونًا فإن على ألا [illegible]

لن أعود . ومن الممكن كذلك ان يكون هذا الوغد صادقا .. لقد قال « صدقنى انت لا تدرك ما تتعامل معه . . »

فهل كان يتكلم عن خطورة عصابته ....

أم كان يتكلم عن (دونّا) ؟؟؟؟

حيرة عارمة فعلا . والادهى ان على ان أتخذ قرارى خلال ساعة .. لا بل خمس وأربعين دقيقة لان الوقت يمضى بسرعة . هذا غير عادل .. أهم قرارات فى حياتك تتخذها وانت صغير السن غير مؤهل لاتخاذها (دراسة ـ زواج) او تتخذها دون ان تعطى الوقت الكافى ..

لا أعرف كيف ولا متى أخذت بعض الثياب فحشرتها فى حقيبة صغيرة تحمل على الكتف وحشرت معها فرشاة اسنان وجوربين ومشطا ..

وسرعان ما كنت أقف خارج الفندق فى الظلام انتظر .. على الارجح رآنى الجميع الان وامل ان تكون قد استعدت لهذا ..

* * *

جاءت السيارة فى الوقت المحدد ..

من النافذة برز رأس ذلك الشاب الوسيم طويل الشعر كالفتيات ، وسألنى بالإنجليزية :

ـ « أنت د . رفعت طبعا .. أنا بدرو .. »

فتحت الباب الخلفى وركبت وقلبى يرتجف . عندها انطلق فى الظلام بالسيارة بسرعة جهنمية . حتى تذكرت على الفور موثق العقود (هاركر) وهو يرتطم بجدران العربة بينما تندفع فى رحلتها المجنونة نحو قلعة الكونت دراكيولا فى الجبال ..

فجأة دخلت السيارة شارعا جانبيا ودارت حول نفسها .. ثم اطفأ السائق الكشافات وراح ينتظر فى الظلام بعض الوقت . فهمت انه يريد التأكد من أننا غير ملاحقين .. بعد انتظار طال خرج من مكمنه وعاد من نفس الطريق .. كان يتجه للخروج من مدريد ...

كابوسية جدا تلك الرحلة التى قطعتها السيارة بسرعة جنونية فى طرقات مظلمة ...

انظر للخارج فأرى حزام النجوم والظلام الدامس .. هل تصرفت بحماقة ؟ . الفتى لا يتكلم على الاط[illegible]

اعتقد أننا نتجه نحو الشمال ...

أخيرًا أرى تلك الصف من البيوت الريفية في الظلام كأنها عمالقة نائمة .. هذا النهر الذي أراه بوضوح الآن .. لا احتاج لخارطة كي أعرف أنه مانزاناريس .. هناك سلسلة جبال تجثم في الأفق ولا أعرف ما هي . تعرف تأثير الجبال في الظلام والقشعريرة التي تثيرها في نفسك .. لو جاء الفجر بألوانه لأكثر مهابة لتوقف قلبي ذعرًا ..

تتوقف السيارة أمام بيت من هذه البيوت الريفية الأنيقة . وأرى دونا تقف هناك وقد لفت كتفيها بشال اتقاء البرد . بدت اسبانية جدًا جدًا ..

(دونا) تدنو ..

(دونا) تبتسم في الظلام ..

(دونا) تكلم السائق ..

ــ « جراسياس بدرو .. »

شاكرة قالتها للسائق الذي لم يرد كالعادة . بمجرد أن نزلت أنا من السيارة كانت قد اختفت بسائقها . بالفعل يتصرف كأنه يمثل دور سائق دراكيولا .. لو عوت الذئاب وقالت دونا لي : « أطفال الليل .. ما أعذب موسيقاها ! » . لما شعرت بدهشة .

ما إن رحل السائق حتى نظرت لي وضحكت :

ــ « مرحبا بك في (مانزاناريس إل ريال) .. لقد رسم جويا هذه المنطقة مئات المرات .. إن نهر مانزاناريس صغير ولا أهمية له جغرافيا لكنه مهم جدًا في تاريخ اسبانيا .. ومهم جدًا لدى المور .. هل تعرف أن (المور) ــ أجدادي أحفاد المسلمين ــ هم من بنوا مدريد ؟.... كانت مجرد قلعة في القرن التاسع .. »

ثم تنحت عن الباب وقالت :

ــ « لكن لا وقت لهذا الدرس التاريخي الآن .. تعال . »

(دونا) تقف وتراقب ملامح وجهي ..

(دونا) عطرة الرائحة ..

من الغريب أن البيت من الداخل كان يحمل نفس معالم شقتها في مدريد .. نفس التصميم وكل شيء مما جعلني أعرف مصدر ما رأيته هناك .. لم يكن هذا ذوق إيزابلا لأن (دونا) كانت هي الشخصية الأقوى ..

ــ « هل أنت جائع ؟ »

ومدت يدها تبحث عن المشط الصغير وسط شعرها الأسود ، ثم ألقت بالشال جانبا فرأيت شبه قميص أبيض

مزركشًا بالدانتيل، وتنورة طويلة سوداء .. من جديد بدت لي إسبانية جدًا حتى توقعت أن تعزف فرقة من الغجر على الجيتار، وتنتفض هي بتلك الحركات العصبية المميزة لرقصات الفلامنكو.

قلت لها إنني غير جائع. لقد أمضيت اليوم أدور على المطاعم والمقاهي حتى لا يقبض علي هذا الفرنسي ..

لم تلح وجلست على مقعد وثير وقالت:

ـ « أنا في مأزق. لهذا طلبتك .. أعرف يقينًا أن أحدًا لم يتبعك إلى هنا، لأنني أعرف (بدرو). ما سوف تراه صباح الغد سوف يبقى سرًا بيننا .. »

الكينونة .. هل أنت الكينونة ؟.. مستحيل. لقد صار أمرك مريبًا جدًا بحيث لا يمكن أن تكوني هي. عندما أقرأ قصة بوليسية وأجد رجلاً مفلسًا شريرًا يملك مسدسًا وسكينًا ملوثة بالدماء وبصماته في كل مكان، وهو الذي لا يعرف أحد أين كان وقت حدوث الجريمة. عندما أقرأ هذا فإنني أعرف يقينًا أنه ليس القاتل ..

« أنت لي يا رفعت ..

لم تعد قادرًا على الفرار أو التملص وكل يوم يفترسك أكثر في هذا المستنقع .. وأنت مغرور .. هذا يفيدني بلا شك ..

لكنك لست أحمق. سوف تنتبه يومًا .. أسرع من الذبابة وتحاول أن تفر بهستيريا ..

لكني سأكون هناك عند أطراف النسيج أتأكد من أنه سليم .. ثم أزحف نحوك .. سأحقن قلبك العجوز بالسم .. »

* * *

قالت لي وهي تنهض:

ـ « أقترح أن تظفر ببعض النوم الآن. سنتحرك بمجرد أن تشرق الشمس .. »

ـ « هل أسرتك هنا ؟ هذا هو بيت الأسرة .. أليس كذلك ؟ »

ـ « نحن وحيدان في هذا البيت .. ولا أتوقع منك أن تسأل عن شيء .. ثمة أشياء يحسن ألا يبحث المرء عنها أكثر من اللازم .. »

(دون) تتكتم الكثير.

(دون) غامضة لا تخرج كل أوراقها ..

(دونًا) تعرف كيف تبقينى أتساءل ...

(دونًا) تتنهد وتقول :

ـ « أسرتى فى مكان قريب .. ولربما حالفك الحظ وقابلت أفرادها اليوم .. »

-7-

أنزل (ميشيل) نظارته المقربة والتى كان يتفحص بها صف المنازل الريفية ، واستدار إلى رفيقه الصموت وقال :

ـ « الظلام دامس ، لكننى عرفت يقينًا أنه معها . كانت واقفة عند مدخل الدار .. »

لقد كان عبقريًا عندما لم يبتعد عن الفندق . قدر أن رفعت سيجرى مكالمة وهذه المكالمة ستجعل الفتاة تأتى له أو ترسل من يأتى به .. وقد كان .. حاول سائقها الإفلات من الرقابة لكنه أحمق .. هذه أساليب بدائية جدًا ...

كانا يقفان وسط الصخور الوعرة التى تميز منطقة (لا بدريزا) .. المشهد الطبيعى الساحر المحيط بـ (ماتزاناريس إل ريال) ... صخور ومنحدرات يولع السياح بتسلقها وتصويرها . هنا تصرفت الجيولوجيا كأنها فنان سريالى عبقرى مجنون وصنعت أشكالا لا تصدق أنها موجودة ما لم ترها ..

هناك ألف طريق للتسلق .. بعضها سهل يمكن أن يجربه عجوز مصاب بتضخم القلب ، وبعضها صعب يحتاج إلى متسلق محترف ..

من بعيد ترى سلسلة جبال (جوادراما) التى تمتد من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى حتى مدريد . ثمانون كيلومترًا من الجبال ....

لم يرد الرفيق الصموت لأنه كان يتبول بين الصخور ..

قال (ميشيل) وهو يشعل لفافة تبغ قوية الرائحة :

ــ « سوف ننتظر حتى الفجر .. أعتقد أنهما سيتحركان لحظتها وسوف يقودانا إلى المكان الذى تخبئ فيه اللوحات .. »

ثم تشمم الهواء وقال فى استمتاع :

ــ « هل تتخيل أن (كوينتا دل سوردو) كان هنا ؟ »

للمرة الأولى تكلم الضخم الصموت . فقال وهو يجذب زمام سرواله ليغلقه :

ــ « لا أعرف ما هو ؟ »

ــ « بيت جويا يا أحمق .. المكان الذى رسم على جدرانه اللوحات السوداء ... أنت لا تشارك فى مسيرة التقدم البشرى والثقافة إلا بالتبول .. لا تفعل أى شىء إيجابى سوى إفراغ مثانتك .. »

ــ « إنها البيرة .. شربت الكثير .. »

ثم أن الضخم أطبق قبضته على المسدس فى غل :

ــ « عندما ترغب فى الانتهاء منهما قل لى ، لأننى مشتاق إلى أن أحرق هذا العجوز الذى حرق ساعدى .. »

ــ « احرقه كله لو أردت .. هو لا يمثل لى أية أهمية سوى أنه قادنا للفتاة .. »

واتجه إلى صخرة ناتئة . فأخرج من جيبه منديلاً فرشه عليها ثم تربع .. وأشعل لفافة تبغ أخرى وقال فى ضيق :

ــ « لم آت معى بكمية كافية من السجائر .. سوف أجد نفسى فى ورطة .. هل معك سجائر ؟ »

ــ « اسبانية .. »

بصق (ميشيل) فى اشمئزاز ثم وضع ساقًا على ساق ، وراح يرمق السماء ...

كان يتذوق الفن جيدًا .. الشر لا يتعارض مع الفن فى رأيه .. لهذا شعر بقشعريرة عندما تخيل أن جويا كان هنا منذ مئات الأعوام ..

بالتأكيد كان يرمق ذات السماء .. ربما جلس على هذه الصخرة بالذات هو وحبيبته التى كانت مديرة بيته (دونا) ...

تلك الأعوام التى فقد فيها الإيمان بفرنسا . بإسبانيا . ربما بالبشرية ذاتها كان فى فوقعة تعزله عن كل شىء .. لا شىء كالصمم يجعلك بعيدا عن كل شىء .. (هيلين كيلر) الكاتبة الأمريكية الصماء العمياء البكماء كتبت تقول إن الصمم هو أسوأ أنواع فقدان الحواس . عندما ينقطع التيار الكهربى فإن الشىء الذى يعيد لنا الهدوء هو سماع صوت مألوف فى الظلام . لم تكن تعلق ذات الأهمية على حاسة البصر . إذن لابد أن جويا تعذب كثيرا ...

هنا سمع ذلك الصوت الذى قطع تدفق أفكاره ..

غريب حقًا .. صوت شبيه بلحم يتمزق . كأن ذئبا غرس أنيابه الحادة فى لحم حمل وهو يمزقه .. إن المنطقة تعج بالطيور الجارحة .. بل إنها أكبر تجمع نسور فى أوروبا .. لكن هذا ليس صوت طائر جارح ..

ماذا يحدث ؟

استدار ليسأل صديقه الضخم . هنا رأى مشهدًا لن يفارق كوابيسه لو ظل حيًا ..

صديقه على الأرض يلعب دور الحمل فعلاً .. لم يجد وقتًا كافيًا ليستعمل مسدسه المحشو . لكن من هو الذئب ؟.. هل كان العنق البشرى يحوى كل هذه الأوردة طول الوقت ؟.. هل فى الرأس كل هذه الدماء ؟

لا وقت للتبين .. لا وقت للسؤال ..

المشهد واضح ولن يعود صديقه للحياة أبدًا .. لقد ذهب للناحية الاخرى من النهر قبل أن يعرف أنه ذهب .. لا شك أنه لم يجد وقتًا يكفى ليتألم .. من المؤكد أنه لن يشرب البيرة أو يتبول ثانية ....

هكذا ألقى لفافة التبغ ووثب فوق الصخور .

أضاء الكشاف الواهن الذى كان يحمله ...

ظلام دامس . بالتأكيد سوف يتعثر ويهشم عنقه ، لكن هذا أفضل بالتأكيد مما ينتظره ..

لقد توقع شيئًا كهذا .. ثمة علامات معينة جعلته يشك فى الأمر ... لكنه لم يصدق حتى هذه اللحظة ..

ظلام دامس .. هذه صخرة عالية [illegible] كانت عيناه قد تكيفتا على الظلام نوعًا ، [illegible] ..

وإلى أين يهرب ؟.. هل يقصد أحد هذه البيوت ؟.. بعيدة جدًا ..

لكن ليس بوسعه إلا أن يحاول ..

هكذا راح يركض وشعره الطويل يتطاير من خلفه ..

ثم قرر أن يصرخ .. لا سبيل لإخراج طاقة التوتر هذه سوى الصراخ .. لم يعد يخشى انكشاف الأمر .. لا أحد يظل كتوما وهو يموت سوى الأبطال الذين يسجلهم التاريخ كشهداء .. وهو ؟.. هو ليس بطلاً .. هو مجرد لص لوحات ..

صرخ مرة ومرتين ...

وفجأة انثنت ساقه من تحته وهوى في فرجة بين صخرتين ..

أدرك من الألم أنها تهشمت بالتأكيد ..

فقط فليدع الله أن يكون هذا المكان مخبأ طبيعيًا وألا تكون لديهن القدرة على شم رائحته ..

الأهم ألا تنتهي سجائره قبل أن تأتي النجدة او الموت .. أيهما أقرب ...

-8-

عندما بدأت الشمس تتثاءب معلنة عن نفسها في خجل ، قالت لي (دونا) وهي تحمل على كتفها حقيبة صغيرة :

ــ « هيا بنا .. »

سألتها في غباء :

ــ « إلى أين ؟.. ماذا سنقوم به ؟ »

ضحكت في عصبية وقالت :

ــ « نحن في منطقة (لا بدريزا) .. هل تعرف معنى هذا ؟.. معناه أن السياح يدفعون مبالغ طائلة كي يأتوا هنا ويقوموا بما سنقوم به الآن .. أنت رجل محظوظ .. »

ثم غادرت المنزل ، وملأت صدرها بالهواء النقي ..

ــ « رباه !... يا له من يوم مجيد ! »

مشينا بعض الوقت وسط مشهد طبيعي رائع الجمال .. خضرة .. أشجار .. سناجب .. طيور لا أعرف اسمها لكنها فاتنة .. النهر يجري من بعيد .. بلد جميل جدًا ... تذكروني أن أقرأ أكثر عن تاريخ العرب في الأندلس لأعرف كيف ترك العرب هذا الجمال كله يفلت من بين أيديهم .

(دونّا) تتقدمنى فى رشاقة وقد أمسكت بعصا صغيرة تستخدمها لتشق طريقها أو تتوكأ عليها أو تشير بها ..

قالت لى بصوت عال لأنها لا تعرف هل أنا قريب أم بعيد :

ــ « هذه التى تراها من بعيد سلسلة جبال (جوادارامًا) .. نحن فى منطقة غنية جدًا جيولوجيًا .. سوف ترى تكوينات صخرية تتقطع لها أنفاسك .. »

ثم توقفت لتشير إلى بيت لم يبق منــه ســوى أطلال .. واستدارت لى قائلة :

ــ « أقدم لك (كوينتا دل سوردو) بكل فخر .. »

حاولت تذكر الاسم .. سمعته من قبل لكن أين ؟

قالت فى ضيق صدر :

ــ « منزل الرجل الأصم .. المنزل الذى عاش فيه جويا ورسم اللوحات السوداء .. لم يعد موجودًا .. »

رحت أرمق المكان الذى أشارت إليه فى انبهار مع شىء من الرهبة .. هنا كانت حياة كاملة فى يوم من الأيام . هنا كان إلهام عظيم ..

قلت لها :

ــ « أنت اعتدت القدوم هنا فى طفولتك طبعًا . لابد أنك وقفت هنا مئات المرات وتخيلت .. »

ابتسمت وقالت وهى تركل الأرض بقدمها :

ــ « يمكنك أن تتصور كم مرة جئت هنا .. لكنى أريد أن تظل صامتًا بعض الوقت .. سوف تعرف أشياء مهمة .. »

واتجهــت إلى منجــدر صخرى جانبى .. فانزلقت فيه حتى غاصت إلى مستوى الخصر ، ثم رأيتها تزيح بعض الشجيرات القصيرة التى تزاحمت هناك ..

بدأت أفهم ما تقوم به عندما رأيت الفتحة .. فتحة كهف أو ممر فى الصخور .. لا أعرف بالضبط ..

استدارت ونظرت لى ثم دخلت من دون كلمة .

هكذا لم أجد بدًا من أن أنزل فى المنحدر الجانبى معها .. ورأيت ضوء كشاف فى يدها يغمر النفق أمامها .. كان ظهرها لى مظلمًا كأنه جلمود ... وكانت تتقدم ببطء .. أحيانًا تستعمل يديها لتستند إلى الجدار فتدس الكشاف بين أسنانها

قلت لها وأنا ألهث انفعالاً :

ــ « هذه الشحيرات للتمويه طبعاً .. أنت وضعتها »

ــ « ش ش ش ! »

مشيت وراءها في حذر بين الصخور ... سوف أثق فيها وفي أنها تعرف أنه لا توجد ثعابين هنا .. لكن جرساً في مؤخرة رأسي راح يردد بصوت الصدى كما يحدث في السينما

ـ *ارفض زيارتها فى دارها الثانية .. فأنت لن تعود*

ـ *ارفض زيارتها فى دارها الثانية .. فأنت لن تعود*

ـ *ارفض زيارتها فى دارها الثانية .. فأنت لن تعود*

دعوت الله ألا يكون التحذير منطبق على هذه الحالة بالذات ..

كانت هناك ممرات جانبية كثيرة .. وفجأة وجدت نفسي في قاعة تبلغ أبعادها نحو أربعة في خمسة أمتار .. كانت مضاءة بشكل معقول وإن لم أتبين مصدر هذه الإضاءة

وفجأة شهقت في رعب ...

* * *

بعد كل اللوحات ...

عندئذ لا مفر من عشر بالتأكيد ، وقد تناثرت على الجدران .. بعضها عملاق بحجم ملاءة الفراش ، وبعضها بحجم جريدة مطوية مرتين ..

رأيت في الإضاءة الضعيفة المتواثبة تلك الوجوه الصارخة المذعورة التي رسمها العبقري الإسباني بألوانه الكئيبة المميزة .. كان هناك رجل يصرخ بينما رجلان قويا البنية يمسكان بساقيه وذراعيه ويقومان بشوائه على نار موقدة ... هناك وحش قرب الى المذعوب يزحف على أربع ويلتهم جثة فتاة .. مجموعة من الساحرات يرقصن الذر ويضحكن بينما ما يتم شيه هو سوب .. قلوب صغيرة الحجم ... قلوب أطفال ..

وهناك فتاة مقيدة الى عمود خشبي وتحاول الكلام .. لكن هذا مستحيل لأنه من الواضح أن لسانها مقطوع ..

لا بد أن محاكم التفتيش نفذت هذا السيناريو بالحرف يوماً ما ..

هناك فتاة تبدو خليط من فتاة ونسر ذي جناحين تلتهم أحشاء رجل على الأرض .. رجل ما زال حياً لكنه عاجز عن الحركة ...

كنت أتنقل بين لوحة وأخرى وأقف متسائلاً .. الخيال مريض .. الرؤية مجنونة .. لكن اليد التي رسمت هذه يد عبقري بلا شك ..

لست خبيرًا فنيًا ، لكنى عرفت على الفور أنها لوحات أصلية .. طابع القدم وخشونة الألوان ومنظر القماش .. لا شك فى أنها أصلية ..

وهذه الفتاة تعرف مكان هذه اللوحات التى يقترب ثمنها ـ بالتأكيد ـ من مليار .. لكنها تفضل الصمت وأن يظل هذا سرها الخاص ..

(دونًا) غامضة ..

(دونًا) ساحرة ..

(دونًا) تخيفنى ...

بالمناسبة .. أين ذهب ضوء الكشاف ؟

استدرت فى دهشة ، لكن دونًا لم تكن هناك .

كنت وحدى فى تلك القاعة ...

الجـزء الثالث

الصـقوبات

من الواضح أنك لا تعرف شيئًا على الإطلاق .. الفتاة قالت عنك لصديقة لها إنك خبير فى عوالم الخوارق وما وراء الطبيعة .. لكنك تتصرف كطفل ساذج .. طفل يمسك بالإناء الملتهب على الموقد دون أن يعرف ما قد يحدث ليده .. لقد انذرتك .. وقتها لم تكن عندى أدلة بل هو مجرد حدس .. الآن أعرف أن ما أقول حقيقى ..

-1-

شعرت بشيء من الرعب كطفل تخلت عنه أمه في متجر كبير .. فمشيت إلى المخرج التالي ..

كان هناك ممر جانبي فمشيت فيه .. لم يكن الظلام دامساً .. يمكنني أن أعرف طريقي .. في النهاية بدا لي أنني أرى مساحة متسعة .. هل بلغت الخارج ؟

لا .. ليس الخارج بالتأكيد لأننا في الصباح . بينما لا أرى نور الشمس هنا ..

لما دققت أكثر تبين لي أنني أرى مساحة خضراء .. أقرب إلى مساحة بين الأشجار . والسماء فوقها لكن الظلام يعم كل شيء .. لا ترى إلا النجوم تتألق في عباءة السماء

فجأة صرت في قلب الليل ولا أعرف كيف

هناك عدد من الأشخاص الجالسين ..

دنوت أكثر فأدركت أنني أرى حشداً من النسوة .. جالسات .. يبدو أنهن فلاحات .. القبح سمة عامة .. أنوف عملاقة من ذوات الدمامل ..

كن يثرثرن ، ثم رفعت إحداهن وجهها فرأتني وساد الصمت ..

قالت إحداهن :

ـ « غريب .. »

وقالت أخرى :

ـ « يبدو أنه لا يعلم »

غريب أنهن كن يتكلمن الإسبانية لكنني كنت أفهمها وربما أتكلمها .. هل اكتسبت اللغة بهذه السرعة ؟

ثم لاحظت أنهن يحطن بقدر يغلي على النار .. قدر عملاق أسود يتصاعد منه بخار كريه الرائحة ..

ما الذي تحمله تلك المرأة ؟ وطواط صغير ميت .. إنها تمسك به وتردد بعض العبارات ثم تلقيه في القدر ..

ـ « ككل ... ككل .. »

تتصاعد الضحكات الرفيعة الملتوية .. وتبرز الأسنان الباقية في الأفواه ..

ـ « ... الأخت ابيجيل ... مزيج يحتاج إلى أوراق الغار ودهن الموتى .. »

وتتعالى الضحكات بينما يرفرف غراب أسود قادمًا من مكان ما ويستقر على غصن شجرة ..

كان كل شيء يتحرك بلا منطقية وبطء الكوابيس .. مثلاً هن لم يظهرن رد فعل مناسبا لوجودى ، كما أننى كنت مذعورا ، لكنى لم أهرب ولم تطاوعنى قدماى على أى شيء سوى الاقتراب أكثر ..

لا منطقية الكابوس طبعًا .. ظلام فى السابعة صباحًا ؟؟؟

* * *

كان المزيج كريه الرائحة ينشر البخار فى كل مكان . وشعرت بأن على ألا أتنفس ..

بينما تلك النساء يحملن دورقًا عملاقًا يسيل شيء أحمر على جوانبه ثم يتناقلنه ضاحكات .. كل واحدة تكرع منه قليلاً ثم تناوله لصاحبتها ، بينما يسيل خيط من السائل الأحمر من ركن فمها .

ثم ظهرت إحداهن وفى يدها دمية من شمع .. دمية بحجم كفك وقد ألبسنها ثيابًا تذكرك بثياب السادة فى العصر الفلامنكى ..

من موضع ما أخرجت كل واحدة دبوسًا عملاقًا بطول إصبعك وراحت تتناول الدمية فتغرس الدبوس فى موضع منها وهى تضحك ...

ثم تناولها لصديقتها .. ثم صديقتها ...

ــ « ككل .. ككل .. ككل !! »

وبعد ما تلقت الدمية البائسة عشرين طعنة فى البطن والصدر والعنق والعينين ، بلغت المرأة الجالسة بقربى .. فأخرجت الدبوس وغرسته فى أسفل بطن الدمية ، ثم ناولتها لى ..

نظرت لهن فى دهشة .. الدمية فى يدى توشك على التحول إلى مصفاة ..

قالت من كن يطلقن عليها الأخت (أبيجيل) :

ــ « هلم أيها الغريب ... هلت زودتك ! »

لم أفهم .. لكن على الأقل فهمت أنها تتوقع منى أن أغرس الدبوس .. طبعًا لن أفعل هذا ... .

كنت الآن قد عرفت الموقف بوضوح ..

سواء كانت هذه هلوسة أم واقعًا ، فهذا هو المشهد الذى رآه جويا عندما رسم لوحته السوداء تلك .. لوحة الساحرات ... القداس الأسود ...

كيف وصل هنا ؟

لا شك أن منزله (كوينتا دل سوردو) كان مزودًا بنفق سرى يتيح له الوصول هنا متى أراد .. لحظات العزلة والانفراد تلك .. كـان فى الواقع تحـت الارض فى موضـع ما من صخور (لا بدريزا) يرسم أو يستوحى ..

لقد كان يأتى هنا ويرسم .. وفيما بعد جاءت دونًا واستطاعت أن تلتقط صورا حقيقية لهذا الحشد المخيف .. هذه هى الصورة التى وجدتها ــ أو ارادت أن أجدها - فى ألبوم صورها ..

(جويا) كان هنا ..

(دونًا) كانت هنا ..

الآن أنا هنا ...

تتعالى الصرخات الرفيعة الشبيه بعواء الغربان:

ــ « هلم أيها الغريب ! »

ــ « هات زودتك !! »

وأنا لا أعرف ما أفعل أو أقول . أتراجع بعض خطوات والدمية فى يدى ..

الان أرى الكادر بالضبط كما رسمه جويا .. نفس الوجوه .. نفس التعبيرات .. نفس الإضاءة .. فيما عدا فارقا واحدًا ..

فى اللوحة الأصلية كانت هناك عند أقصى اليمين فتاة حسناء جالسة لا تشارك فى المراسم .. فتاة لها شعر أسود فاحم .. هل هى (دونًا) ؟.... الان أشعر أن الشبه قوى جدًا ... ربما لم تكن دونًا فقط أول من صور هذا الحشد بالكاميرا .. ربما كانت ضمن أفراده يومًا ما !

تراجعت أكثر بينما الصيحات تتعالى :

ــ « ككل .. ككل .. »

ــ « زودتك أيها الغريب ! »

هنا سمعت ذلك الصوت الغليظ من خلفى يقول بالإسبانية التى صرت أفهمها :

ــ « زودتك أيها الغريب أو أنت ملعون .. إن الحساء ما زال بحاجة لعينين آدميتين ! »

الصوت كان غليظًا وغريبًا أقرب إلى خوار الماشية .. ربما ثغاء الماعز لو صار غليظًا .. لا أعرف كيف أصفه لك بالضبط .. دعك من تلك الرائحة اللعينة التى تفوقت على رائحة الحساء ..

كانت اللوحـة الأصـلية تتركز حـول شخص جـس وظهره لنا ... شخص يبدو كتلة من السواد لكنه مركز اللوحة فعلا ..

شخص له رأس جدى ...

لقد نسيت وجوده ونسيت أنه مركز الحفل ...

الشيطان ..

« كل أساطير القرون الوسطى تحكى أن الشيطان كان يحضر اجتماعات الساحرات على شكل غراب أو جدى أسود . الجدى له سمعة سيئة فى هذا الصدد . وأنت تعرف أن الشيطان يرسم دومًا على شكل تيس .. »

لو كانت اللوحة دقيقة فأنا أقف الآن والشيطان وراء ظهرى ، وقد نسيت أنه موجود ...

ــ « عندما تكلمهن تذكر أنه خلفك .. »

من نصائح الكينونة الغامضة .. الآن أفهم معناها ...

كانت الأنفاس تلسع عنقى من الخلف وأنا أفكر فى الطريقة المثلى للفرار ..

عندما بدأت العجائز يزحفن نحوى .. كن يمشين على أربع وهن يضحكن بطريقتهن الماجنة رفيعة الصوت ..

ــ « هى هى هى ! »

ــ « ككل .. ككل ! »

ــ « هات زودتك أيها الغريب .. أو عليك اللعنة ! »

حاولت قراءة المعوذتين لكن ذاكرتى واهنة جدًا .. لا أستطيع تذكر الكلمات .. لسانى ثقيل كما فى الكوابيس ...

الحقيقة أننى كنت أنزلق لعالم اللاشعور بسرعة فائقة ، وخطر لى أن هــذا مخيف لأننى صرت ملكا لهــن أو لهم .. يفعلون بى ما يشاءون ، ثم قررت أن هذا أفضل وأكثر رحمة ...

ظلام ..

ظلام ..

ظلام ..

* * *

غدًا تهب الريح وتهدم جزءًا من النسيج .. لو فتحت هذا الكفن لوجدت هيكل ذبابة بعد ما امتصت منه العصارة الحية .. هيكلا يتهشم لو نفخت فيه ..

الذبابة المغرورة التى حسبت أنها تملك إرادتها ..

لكن الغرور كان مفيدًا للعنكبوت .. لابد أن تجن الذبابة وتحسب نفسها حرة ..

أنت لى يا رفعت ..

-2-

ـ « هلم أيها الغريب ! »

ـ « هات زوندتك !! »

* * *

من جديد أرى السماء . . .

سماء الصباح العادية التى أعرفها وآلفها وأحبها ..

لقد كان كابوسًا شنيعًا لكنى خرجت منه كما هو واضح ..

أنا فى فجوة صخرية ضحلة .. يمكننى أن أتسلق قليلاً لأعود للسطح .. لا مشكلة ..

ولكن هذه الرائحة ؟؟؟

أنا أعرفها وأشمها بوضوح من حولى ...

نظرت إلى الأرض فوجدت تلك الأعقاب .. التقطت واحدًا منها من بين الأعشاب فقرأت بوضوح كلمة (جولواز) ... المخيف أن بعضها ملوث بالدم .. الرجل طويل الشعر يصنع كل هذا . حسبنا أننا ضللناه لكنه موجود هنا وربما قريب كذلك .. هممممم .. عقب .

هنا سمعت الأنين يأتي من أعلى ..

تسلقت الصخرة .. أربع خطوات صرت بعدها في مستوى على ..

ما هذا الشيء العملاق الذي حلق مبتعدًا ؟

عندما رأيت الرجل فهمت ...

لقد كان محطم العظام في هذه الحفرة . ويبدو أن العقبان والنسور عرفت مكانه .. يبدو أنها هاجمته مرة أو مرتين فطردها . لكنه في النهاية لم يعد قادرًا أكثر

إن المنطقة تعج بالطيور الجارحة .. بل إنها أكبر تجمع نسور في أوروبا ..

لقد قضى الوقت ينتظر مصيره .. يسند ظهره إلى صخرة ليبقى رأسه مرفوعا ويدخن سجائر الجولواز كريهة الرائحة

ومن الواضح أنه أنهى ما لديه . لأنه كان يضغط بين أسنانه على عقب سيجارة منطفئ .. فلما رأى بعينه الوحيدة السليمة صاح بالإنجليزية :

— « هيه يا صاحبي .. هل معك سجائر ؟ »

للأسف لا .. ولا يوجد كشك سجائر قريب وسط هذه الصخور . إن طلبات المحتضرين مقدسة ..

قال وقد فهم أنه لا سجائر معي :

— « لا أعرف من الأكثر حظا .. صديقي الذي مزقت عنقه أم .. الذي مزقته النسور حيا .. أعتقد أن الوغد محظوظ .. »

جلست على الأرض بقربه وتحسست نبضه .. صدمة عصبية بلا شك .. أريد هاتفا .. أريد هاتفا حالا .. ربما لو حاولت المشي نحو تلك البيوت .. وفي هذه اللحظات حكى لي قصته كلها باختصار شديد وبصوت كالفحيح .. .

ولكن .. أين دونا ???

كأنما سمع أفكاري قال بصوت كالفحيح :

— « تبحث عن فتاتك ذات الأصل (الغور) ؟.. لتنقذك ؟.. هه ؟ »

ثم انفجر يضحك بطريقة درامية جعلته يسعل ثم يتقلص وجهه ثم :

— « سذج .. كح كح . سذج .. أوه ! .. أبله .. كح كح »

ثم قال بعد ما هدأ قليلاً :

ـ « من الواضح أنك لا تعرف شيئاً على الإطلاق .. الفتاة قالت عنك لصديقة لها إنك خبير في عوالم الخوارق وما وراء الطبيعة .. لكنك تتصرف كطفل ساذج .. طفل يمسك بالإناء الملتهب على الموقد دون أن يعرف ما قد يحدث ليده .. لقد أنذرتك .. وقتها لم تكن عندى أدلة بل هو مجرد حدس .. الآن أعرف أن ما أقول حقيقى .. الفتاة من (المور) .. بالواقع هى من (المورو) .. هل تعرف معنى (مورو) ؟... معناها كيان ميت أو خارق للطبيعة يبدو كفتاة .. وتقول الأساطير إنها تمشط شعرها الأسود الطويل بمشط من ذهب طيلة الوقت !! .. ألا يذكرك هذا بشيء ؟ »

نظرت إلى الضحكة الكريهة على شفتيه ولم أعلق .. فعاد يقول :

ـ « فى البرتغال يعتقدون أن المورو شقراء أما الأسبان فيعتقدون أن شعرها أسود .. كح كح ... لكن الاسم يرتبط بالمور كذلك .. فالأسبان فى عصور محاكم التفتيش اعتبروا كل من لم يتعمد شيطانيًا كافرًا .. هذا ينطبق على الشياطين غير الموتى ، وينطبق على أتباع الديانات الأخرى .. لهذا اطلقوا اسم (مورا) على هذه الشيطانة .. »

ثم عاد يسعل .. وبدأت رجفة غير مبررة تسرى فى ساعده .. أوقفها بيده الأخرى ثم قال :

ـ « مـورا إنكانتـادا Moura Encantada .. أى المـورا المسحورة .. تجدها فى الأماكن المقفرة ، وتعيش فى قلاع تحت الأرض .. تبنى حصون الجبـال والصـخور العملاقة المسماة dolmens .. وهى تبـدل شكلها بسـهولة تامة وتبتعـد عن مسطحات الماء .. وتخطف الأمراء المسيحيين بلا توقف .. طبعًا عن طريق إغوائهم .. إنها فى النهاية صقوبة .. هل تعرف معنى صقوبة ؟ »

ـ « الصقوبة Succubus هى النسخة الأنثوية من الجاثوم incubus .. تزعم الأساطير إنها فتاة جميلة مسئولة عن موت الرجال وهم نيام .. »

ـ « أنت لست أحمق جاهلاً لهذا الحد .. كح كح .. لكن هذا العلم السطحى لم يمنعك من السقوط فى براثن صقوبة .. »

قلت وأنا أنهض لأنفض الغبار عن ثيابي:

ـ « كلام فارغ .. دعك من أننى لست أميرًا مسيحيًا لو كنت قد لاحظت هذا .. »

قال وهو يتنفس بصعوبة :

— « لا يجب أن تكون الاسطورة حرفية .. كنت مثلك ... أشعر أنها فتاة خطرة وكفى .... حتى رأيت كيف .....مات صاحبي .. يبدو أننا اخترنا الشخص الخطأ كي نعبث معه .. »

قلت في حماسة :

— « سوف أركض حتى ابلغ المسارل وأطلب نجدة .. لقد انتهت مغامرتي عند هذا الحد .. »

عاد يهتز بتلك الطريقة الساخرة المتألمة وقال :

— « قلت لك انك غبي تمامًا . القصة لم تنته .. لقد بدأت !! »

عندما مال رأسه إلى جانب وسقط عقب السيجارة من بين شفتيه ، وكف عن السعال ، وعندما لم يعد يتهمني بالغباء ويسخر مني ..

عندها عرفت أنه على الأرجح قد مات ..

-3-

محاولا ألا أفكر كثيرا في الجثتين الممزقتين اللتين تركتهما خلفي ، بدأت أرقى الصخور لأصعد ...

هنا أدركت في جزع أنني أدخل عالمًا آخر .. منظر السماء لا يقول بتاتًا انك في الثامنة صباحا .. بالواقع لا يمت لأية ساعة في اليوم ..

سماء رمادية عجيبة . . اللون الحقيقي للضباب للكارثة ...

إنني ما زلت بين الجبال لكن كل شيء قد اختلف .

(دون) ايتها اللعينة .. متى تخلصينني من هذا ؟.. واضح أنني في دوامة كابوسية من الهلاوس ..

كنت أرى بوضوح في الأفق مجموعة من الفرسان .. لا يمكن أن يكون هؤلاء من عصرنا هذا . بل فيهم ما يوحي بعصر نابليون بونابرت ..

إنهم يبتعدون على بخيولهم لحسن الحظ . يتجهون لعمق الكادر لو شئت الدقة ..

فجأة ظهر مجموعة من الجنود يحملون بنادق عتيقة .. إنهم يصوبون بنادقهم نحو الفرسان ويطلقون الرصاص .. لحسن الحظ أن اتجاه الفرسان واتجاه الرصاص بعيدان عني ..

راح صوت الطلقات يتردد بعنف في الجبل .. الطلقة وصداها ..

أين أنا بالضبط ؟

هل جاء جويا هنا أو جاءت دونا ؟

فجأة شعرت بأنني ارتفع .

لا مزاح هنا .. إنني أحلق في الفضاء وبسرعة جنونية ..

أطلقت صرخة رعب وحاولت التمسك بشيء ..

لكنني أدركت أن هناك من يلف دثارًا حولي ويطير بي .. نفس الطريقة التي يحلق بها سوبرمان مع حبيبته فوق الثلج قاصدًا قلعته في القطب ..

استدرت لأعرف من يحملني ..

كانت امرأة .. امرأة تغطي نصف وجهها ولا تنظر لي على الإطلاق ، وخمنت من ملامحها أنها جميلة على الأرجح .. جميلة جميلة .. لتكن مارلين مونرو نفسها ، لكن لا يوجد رجل يشعر بالراحة عندما تحمله امرأة تطير ..

ونظرت إلى أسفل لأرى أننا نحوم حول ذلك الجبل ، بينما المعركة تدور أسفلنا .. لا أحد من الجنود ينظر لأعلى .. لا أحد يطلق علينا

هنا تذكرت ...

اللوحة التي يسمونها أريموديا والتي تظهر عفريتة تحمل رجلا مذعورا ، وتحلق نحو جبل .. لوحـة غريبة جدًا شبه سريالية .. عفريتة وجبـل ورجل مذعـور وجنود يطلقون الرصاص على فرسان . والأغرب أن أيًا من عناصر اللوحة لا يبدي أية علامة على أنه يلاحظ العناصر الأخرى .. كأن كلاً منها في بعد آخر لا يقدر على رؤية الآخرين ..

كان لي لقاء مع الأخ (أزيموديوس) زوج (ليليث) ذات مرة . إنه شيطان ذو أصول عبرية .. هل تذكرون (ليليث) ؟..

(أزيموديا) هي الصيغة الأنثى من (أزيموديوس) .. ذكرت في الديانة اليهودية ومن الواضح أنها هي الكائن الذي يحلق ..

لكن ماذا تريد مني ؟

لماذا تحلق بي ؟

لا أحد يعرف ..

بالطبع لن يمكننى أن اقتلها وإلا هويت من عل .. بفرض أنها قابلة للقتل أصلا .

فقط يمكننى ان أتخيل مر الدعر على وجه الرجل فى اللوحة أن ما ينتظره ليس محببا . شيطانة عبرية تحملك فماذا تتوقع أن تفعل بك ؟

سؤال وجيه ...

كان التنفس عسيرا وشاق لأن الهـواء كـان خفيفًا يتدفع بسرعة فى وجهى .

أريد التنفس .. أرجوكم ...

يا أخت (أزيمودي) . يمكننا أن نتوقف للحظة ونتكلم .

(جويا) كان هنا .. ربما وقف عند هذه الصخرة ورأى المشهد الرهيب الغامض ... هذا المشهد لم يكن وليد خياله بل نقله بأمانة تامة ...

(دونا) جاءت هنا والتقطت بعض الصور .

(دونا) عرفت الكثير ..

(دونا) رأت تجارب مرعبة ..

(دونا) جزء من التجارب المرعبة ..

(دونا) جاءت بى هنا ونعرف كيف أعود ..

فجأة عرفت المصير الذى ينتظرنى ، لأن الأخت التى تحملنى ارتفعت بى كثيرا جدًا .. لا تفعلى من فضلك .. أنا مريض بضيق الشرايين التاجية ولا أتحمل نقص الأكسجين .. سوف تقتليننى ..

أنا لا أستطيع التنفس ...

فجأة هى تهبط بسرعة .. بسرعة ..

حتى أن الدم كله احتشد فى رأسى . لا تفعلى من فضلك فأنا مصاب بتصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم ، ومن السهل أن تنفجر شرايين مخى ...

إنها تدور .. وتدور .. تعلو وتهبط ..

لقد نجحت بالفعل .. نجحت فى جعل وعيى يتسرب ...

إن الظلام يزداد كثافة .. من وضع هاتين البقعتين السوداوين السمجتين فى مركز الرؤية عندى؟ البقعة العمياء التى وصفها الخواجة (مريوت) لم تكن بهذا الحجم قط .

إننى .. ..

-4-

من جديد وجدت نفسي في قاعة أخرى ..

هذه المرة كانت هناك مائدة . وكان هناك من يأكل عليها ...

أنا لم أمت إذن .

هناك رجل عجوز يلتهم الطعام مع امرأته أو صديقه ـ لا أعرف بالضبط ـ أو هذا ما أراه في هذه الإضاءة الخافتة . الرائحة كريهة جدًا ومن الغريب أنهما يملكان شهية طيبة .

الحقيقة أن حالتهم ليست واحدة .. أحدهم أقرب لعجوز باسم . لكن ضحكته من ذلك الطراز الأصفر الموحي بالفزع .. الآخر أقرب لجمجمة حية ..

تذكرت على الفور ..

هذه اللوحة بالذات رسمها جويا على جدار غرفة الطعام . موضوع غريب جدًا لكي يُرسم هناك . فالأكل ليس في حد ذاته مبررًا لوضع صورة قاتمة بشعة كهذه ..

كان الرجلان المرسومان على اللوحة يقتربان من حجم الإنسان العادي .. وعندما كانت الشموع تتوهج في قاعة الطعام كان الرأسان يبدوان كأنهما يشاركان جويا الطعام ..

ـ « تعال أيها الغريب .. »

جاء الصوت من أحد الرأسين ..

ـ « شاركنا طعامنا .. »

ومد الرجل الأول يدًا ترتعش شبيهة بالمخالب . تحمل طبقًا به مادة مزرية قذرة ..

تراجعت للخلف خطوة . وإن تصلبت عيناي على الطبق ..

فهمت ...

لهذا لم ير أي ناقد عيني الآكل الثاني الشبيه بالجمجمة .. لهذا أيضًا يبدو مثل الجمجمة .. إن ما في الطبق يفسر كل شيء .. فكرة غريبة جدًا أن يأكل المرء عينيه لكن هذا ما حدث .. ومن الواضح أن جويا قد رأى المشهد وصدمه بقوة . لكنه لم يظهر محتوى الطبق ..

ـ « تعال أيها الغريب .. »

ـ « إن لك عينين واسعتين شهيتين ! »

ويبدو أن الدعابة كانت قوية جدًا لأنهما انفجرا يضحكان . وكان ضحكهما شيطانيا ذكرني بضحكات الساحرات ...

تراجعت للخلف أكثر ..

كنت أرتجف من التقزز ..

لكن ما أراه حقيقي .. لا يمت للكوابيس بصلة .. أنا بالفعل في واحد من تلك الأقبية اللعينة المحيطة بدار جويا القديمة حيث كل شيء ممكن ...

ـ « شاركنا الطعام أيها الغريب .. »

ـ « أو هات شيئًا منك لطعامنا .. »

هنا كنت قد اكتفيت ..

اتجهت نحو المخرج الذي جئت منه . لكنه كان مغلقًا ...

نهض الرجلان وهما يرتجفان .. وكان كلاهما يحمل ملعقته كأنه خنجر ويتجه نحوي ..

ـ « هلم أيها الغريب . إن لك عينين لذيذتين ! »

بالطبع لن يهزمني هذان ..

لقد قهرني كل كائن تصارعت معه في تاريخ حياتي . لكن أن يهزمني هذان الهيكلان العظميان لأمر لا أقبله ولن يحدث على كل حال ..

أنت تعرف طريقة الممسوخ في أفلام الزومبي .. حركة بطيئة راجفة تثير الشفقة . لكنهم يظفرون بك في النهاية ولا تعرف كيف . تتعثر أو تجد الطريق مسدودًا

لهذا تأهبت للأسوأ ..

كانت هناك كسرولة صغيرة أمسكت بها كأنها هراوة وتأهبت لأن أهشم رأسيهما لو تقدما أكثر . هما مواطنان سبانيان لكن أحدًا لن يهتم لفقدهما ..

كنت أتراجع للخلف عندما ...

آي ...

ذراعان تلتفان حول ساقي ..

إنهم ثلاثة الآن ! .. لماذا لم يقم جويا هذا الكسول برسم كل من في هذا المكان ؟

وسقطت على الأرض على ظهري ..

حاولت النهوض .. لكن يدا معروقة نحيلة تمسكت بالمعصم الذى يمسك بالكسرولة .. يدان .. إذن هناك أربعة منهم !

لا .. خمسة .. لأن هناك عجوزًا آخر ألقى نفسه على جسدى ..

وهنا عرفت كيف يستطيع هؤلاء الأشباح أن يقهروا رجلا برغم أنهم هياكل عظمية .. الكثرة تغلب الشجاعة فعلا ..

وشعرت بيد معروقة كريهة الرائحة ذات مخالب تمتد لتنزع عويناتى ..

ورأيت الملعقة تتجه لعينى :

ـ « هلم أيها الغريب .. شاركنا العشاء ..! »

ـ « سوف تحب هذا بحق .. »

ـ « عيناك شهيتان ... »

بحثت فى جيبى عن السلاح لكن الذعر منعنى من أن أجده ..

رحت أدير وجهى فى عصبية وجنون مع إغلاق عينى بقوة .. هنا حدث ما كنت أخشاه وبدأ قلبى يتخلى عنى .. سوف أفقد وعيى وسوف تكون كارثة .. لا .. لن أفقد وعيى هنا ..

يجب أن أقاوم ...

المزيد من الضحكات الكريهة اللزجة ....

-5-

كنت نائمًا على ظهرى ..

هل هذا مخدع أرضى تحيط به ستائر هفهافة ويوقد من حوله الشموع ..؟

هل هناك رائحة بخور ؟

كانت هى تميل على صدرى مستندة على ساعدها .. كأننى تحولت إلى وسادة أو شرفة بيت .. ما زلت بثيابى التى خرجت بها صباحا .. رشيقة لكنها بالنسبة للياقتى ثقيلة كفرس نهر ..

شعرها الأسود الطويل يحيط بى كأنها غصون صفصاف تتدلى على ضفاف نهر .. أى النهر .. عطرة الرائحة .. حسبى لو مت هنا والآن ..

تقول لى وهى تتأمل وجهى بعينيها السوداوين :

ـ « الآن أنت تفهم يا رفعت .. أنت تعرف .. »

قلت وأنا أتنفس بصعوبة :

ـ « صفوية .. مورا إنكالتادا ..

تنهض جالسة لحسن حظى . وتخرج المشط الذهبى الصغير وتقول وهى تصفف شعرها :

ــ « لا تهم الأسماء . سمنى ى شىء ... فقط تبقى معى للأبد .. »

ــ « أى أبد ؟ »

ــ « حتى الموت . موتك طبعا . وعندها أكون قد امتصصت حياتك .. »

حسن .. لا وعود بالخلود وكل هذا الهراء الذى يذكرنى بأجواء دوستويفسكى .. صفقة عملية جدا .. لكن أين تريد أن نعيش ؟

ــ « أين ؟.. هنا ؟ »

ــ « نعـــم هنا أو فى مدريد .. لو كنت تعـــرف القصة كلها لعرفت أنى والأخريات نسكن فى الصخور العملاقة فى شبه جزيرة أيبريا .. هنا والبرتغال بلغة اليوم .. »

قلت لها بلسان جاف :

ــ « عرفت هذا وأكثر من ذلك الفرنسى الذى مزقته النسور .. ماذا فعلت بصديقه ؟ »

قالت فى شىء من دلال :

ــ « يمكننى أن أكون شرسة إذا أردت .. لكنى أكون لطيفة جدًا مع من يطيعون أوامرى .. »

كان السؤال المنطقى الأهم هو :

ــ « لماذا أنا بالذات ؟.. »

قالت بصوت كالفحيح جمد الدم فى عروقى :

ــ « لأنها تحميك .. »

ــ « هى ؟.. من هى ؟ »

ــ « أنت تعرف من أقصد .. لا اسم لها .. لا أعرف ما تطلقه عليها لكننا نتحدث عن الشىء ذاته .. وأعتقد أنها أنذرتك منى .. لأنها تحميك صرت أنت هدفا مختارا لى .. إن الأمر فى النهاية معركة حامية بيننا ... »

بدا لى الأمر كدائرة مفرغة تدور للأبد . واحدة من أحاجى علم المنطق التى لا حل لها .. الكينونة تحمينى من خطر ما .. هـــذا الخطر يطاردنى لأن الكينونة تحمينى ! . العبارات الثعبانية التى تلتهم نفسها ..

قلت لها :

ـ « هل هذه العوالم السخيفة من صنعك ؟ »

ـ « لا .. لكنى أملك مفتاحها وأعرف كيف أصل لها .. وقد عرفت كيف أقتاد جويا ليراها .. »

ـ « أنت كنت مع جويا ؟ »

ـ « كنت مع كثيرين . بالنسبة لجويا كنت مجرد خادمة تحبه بصدق ، لكنى أوحيت له بالكثير .. وعندما ابتاع (كوينتا دل سوردو) لم يدر أنه يطيعنى .. عندما يهمس طيلة الليل فى أذن النائم بشيء ، يصحو وقد قرر أنها فكرته وان عليه تنفيذها .. كان أصم لكن من قال إن همسنا لا يخترق جدران العقل مباشرة؟.. وعندما سكن البيت بدأ يدرك أن هناك أقبية وبدأ يكتشف أن هذه الأقبية تقوده لعوالم لم يتصور وجودها .. هكذا راح يرسم كالمجنون .. »

ـ « وماذا كنت تريدين منه ؟ »

ـ « أن يكون لى حتى الموت وأن أمتص وجوده كعنكبوت .. منحته الخلود كفنان فى المقابل .. ما كان ليرسم اللوحات السوداء من دونى .. »

عدت أقول فى غيظ :

ـ « ولماذا هو بالذات ؟ »

ـ « لأنه فنان عبقرى ... أنا أبحث كجامع التحف النادرة .. ينتقى هذا الأثر .. يتخلص من هذا .. يحتفظ بذاك ... قد أختارك بلا سبب .. وقد يكون هناك سبب قوى .. ربما لأنك أروع رجل فى العالم وربما لأنك الوحيد الذى لا يملك أية مزية .. »

نهضت من الفراش وبحثت عن عويناتى .. لحسن الحظ وجدتها على وسادة صغيرة هناك .. لم يهشمها هؤلاء الشيوخ الجياع ..

قالت وهى تضرب الفراش بقبضتها :

ـ « قل إنك ستكون لى يا رفعت ، ولسوف أنهى هذا الكابوس .. سنعود معًا إلى مدريد .. »

لم أرد .. وقفت على قدمين لينتين وحاولت أن أتوازن ..

هناك مخرج فى مكان ما .. أعرف هذا يقينًا ..

البدء من دونها .. سيكون هذا قاسيًا صعبًا ... لن أعرف كيف أعود إلى العالم الحقيقى ، لكنى لن أترك نفسى أعيش مع صقوبة ... ربما كان الموت أفضل هنا والآن .

صاحت فى عصبية وقد بدأت تكشف عن طبعها المتوحش الذى رأيت لمحات منه من قبل :

ـ « لن تتحمل يا احمق .. إن جويا لم يرسم ربع مشاهد الفزع التى رآها هنا .. هناك الكثير ... »

لم أرد وواصلت المشى المترنح نحو المخرج .. لن تمزقنى .. أعرف هذا يقينا لانها تريد ان اقبل بكامل إرادتى .. لن تشعر بأنها انتصرت من دون ذلك ...

أزحت الستائر فوجدت أننى فى مكان مفتوح آخر ...

فقط سمعتها تسبنى بالاسبانية هذه المرة ..

-6-

كانوا يحلقون فى الهواء .. نحوى ..

أربعة رجال أم نساء ؟.. يمكن أن تراهم بوضوح لكنك لا تعرف جنسهم بالضبط ، فالنساء والرجال فى لوحات جويا شديدو القبح غالبًا ..

أحد الرجال يغزل باهتمام وتركيز شديدين . الآخر يحمل مقصًا .. الثالث يبدو أنه يقيس خيطًا ..

الأقدار الثلاثة .. الأقدار الثلاثة كما تخيلها الغربيون ...

فقط هناك شخص رابع يمسك بعدسة ويدقق فى شىء ما .. لا أحد يعرف دور هذا الرابع ولا ماذا يفعل . كالعادة يحطم جويا أى تفسير سهل للوحة ليجعلها نوعا من الهلوسة غير المنطقية .. هذا الرابع أفسد تمامًا فكرة أن تمثل هذه اللوحة الأقدار الثلاثة .

أتروبوس ... الأقدار ..

هذا هو اسم اللوحة الرهيبة ذات الجو الموجس الغامض .. والتى رسمها جويا فى الطابق الثانى عن البيت .

لو افترضنا أن هذه صور نساء (وكمعظم اللوحات السوداء يصعب أن تعرف إن كانت تظهر ذكرًا أم أنثى) فإن التى تمسك بالمقص هى أتروبوس التى تقطع خيط الحياة .. كلوثو ولاتشيسيس اللتان تغزلان .. الرابع قد يكون رجلاً واقعًا فى قبضة الأخوات الثلاث ..

إنهم يدنون منى .

أنا فى العراء ولا أعرف الخطر الذى قد يسببونه لى ، لكن منظرهم ليس مريحًا ..

يجب أن أتوارى ...

رحت أثب فوق الصخور وأتعثر ..

قدمى تنزلق وتلتوى .. يبدو أنه من السهل أن ألقى نهاية كنهاية مهرب اللوحات الفرنسى .. ساق مكسورة وحفرة وانتظار قدوم النسور ...

إنهم يلقون خيطًا طويلاً فى اتجاهى .. هناك كذلك من يقيس شيئًا فى الخيط ..

الخطوة التالية معروفة وهى قطع الخيط .. عندها سوف يسقط (رفعت إسماعيل) ميتًا فى هذا المكان الغريب القادم من الكوابيس ...

يدورون من حولى فأرتمى على الأرض على وجهى ، ويملأ الغبار والعشب فمى فأبصق ..

أشعر بهم على ارتفاع أمتار فوق رأسى ...

أنهض .....

* * *

لن يبقى منك سوى قشرة مخيفة فى كفن من حرير ..

فقط عليك أن تستمر معى .. أن تطيعنى .. أن تهتم بما أهتم به ..

أنت لى يا رفعت ..

فلا تقاوم كثيرًا .. كلما قاومت أصدرت صوت طنين يجعلنى أتوجه لك .. أعرف مكانك ..

أنت لى يا رفعت ..

يا لك من مسكين ...

* * *

أخيرًا وجدت ذلك المنحدر بين الصخور فانزلقت فيه ..

يسمح لي بأن أظل واقفا لكنه كذلك يدفعني دفعًا إلى الركض كي لا أسقط ..

ومن فوق رأسي طار ذلك التكوين الرباعي الغريب محلقا كأنه طائرة هليوكوبتر تحوم حول هارب في الجبال ...

لا يستطيع الهبوط لي في ذلك الشق الضيق ..

إن منطقة (لا بدريزا) مليئة بالمخابئ وهذا يتيح لي فترة من الهرب . لكنه كذلك يجعلني سجينا في متاهة .. لا أعرف متى ولا كيف أفر ... والمشكلة أن هذه الأماكن لا تخضع لدقة جغرافية أو إحداثيات .. تتحدى أي منطق أو حاسة اتجاه .

هناك عالم كامل حي تحت الأرض ..

هذه المرة رأيت أمامي ما يشبه الكهف الواسع العميق

لا أعتقد أن هذا التكوين الجيولوجي العجيب منطقي .. سقف الكهف عال جدًا جدًا . بينما أنا لم أهبط سوى مترين . إضاءة غريبة تأتي من لا مكان كعادة هذه الأماكن .. لا يمكنك معرفة مصدر الضوء أبدًا ولا معرفة نوعيته .. الحق أنك تشعر بأن الصخور نفسها مضاءة ..

رحت أبحث عن الكابوس التالي ..

عدت مشاهد مريعة لم يرسمها جويا . فلعلي واجد واحدًا منها هنا ..

مشيت في حذر بين الصخور والحجارة البارزة من الأرض أرفع رأسي لأنظر إلى الهوابط في سقف الكهف . وقطرات الماء تتساقط ببطء .. ببطء ...

فجأة سمعت الأنين ...

هناك في ركن الكهف معلق على الجدار كأنه لوحة مجسمة

كان ذلك الرجل الذي يوحي كل شيء فيه بأنه شاب مثقف ممتلئ بالرجولة ومهندس ناجح ..

مانويل !

-7-

لا احد يفقد (دوب) بكامل إرادته .. هى التى تتخلى عن الناس شخصيون بلعنته والبله المغولى ويموتون كمدًا ... لابد انها تتفق مع شركه طافة للتخلص من جثث العشاق الميتين و بعضها تستعمل جثثهم فى تسميد الحدائق ...

* * *

مانويل معلق هناك ..

مربوط بالسلاسل والجنازير فى وضع أقرب الى وضع المصلوب .. فى حالة إعياء لا توصف ..

ينزف دما من أكثر من موضع فلا يمكنك أن تتبين مصدر الدم . لابد من حمام جيد بالماء والصابون قبل أن تشخص .

ثيابه ممزقة فلم يبق سوى ما يذكرك بالضمادات حول جسده ..

دنوت منه اكثر ورفعت رأسى .. كان رأسى عند مستوى ساقيه تقريبًا .. وقلت بالإنجليزية :

ـ « هل تتكلم الإنجليزية ؟ »

رفع رأسه بصعوبة وفتح عينًا واحدة وهمس

ـ « قـ .. قليلاً ... »

ـ « أنت مانويل .. أليس كذلك ؟ »

ـ « بـ .. بلى .. »

كنت أتكلم وأنا أبحث حولى عن شىء أحطم به هذه السلاسل . وجدت أداة على الأرض تذكرنى بالعتلة فرفعتها لأستخدمها . ثم اجفلت وألقيتها أرضا عندما تبينت أنها عظمة فخذ عظمة فخذ طازجة آدمية طبعًا ..

قلت له وأنا أفتش حولي:

ـ « إذن أنت لم تتخل عنها .. »

ـ « لا أحد .. يتخلى عن دونا .. هى التى تتخلى عنك

سوف أريحك من هذه العبارت المتقطعة غير المفهومة وألخص لك ما فهمته ..

فى المتحـــف وأمام لوحـــات جوي التقى لمهندس الأسبانى الوسيم (مانويل) مع حســـناء العور (دوب) ونشأ الحب بينهم وعاشا معا عشًا من الحلم . [illegible]

تحول فعلاً احتكار وجوده . تريد أن يكون لها بالكامل .. يقابلها عشر مرات كل يوم .. يتصل بها مئة مرة .. ممنوع أن يشرد ذهنه . ممنوع أن تراه يكلم أية أنثى ولو كانت فى التسعين أو الخامسة .. ممنوع أن يذهب لأى مكان دون أن يخبرها . وعندئذ يفاجأ بأنها لحقت به هناك !

مع الوقت شعر بخوف . إن حياته لم تعد حياته بل هى حياة دونا مضروبة فى اثنين ..

كانت تتضخم . كانت تكبر . كانت تتغلغل فى كل شىء ..

بدأ فى هدوء ونعومة عملية الفرار من حياتها . صار يتصل بها أقل ويخرج معها أقل . لكنها كانت متمردة وكانت تكشف فى كل يوم عن جانب مخيف منها لم يعرفه من قبل .

فى النهاية قدمت له الاختيار : ستكون لى للأبد .. وسوف أمنحك السعادة والخلود ..

طبعاً أصابه الذعر وظل فى بيته عدة أيام لا يرد على مكالماتها . ما خطر له هو أن الفتاة مخبولة تماما .. ليست هذه أول مرة يجد فيها مخا متعفنا داخل رأس رائع الجمال ..

ثم عادة تمشيط الشعر كل دقيقتين هذه كما تحكى الأساطير عن (المورا) ..

قلت له وأنا أحاول انتزاع السلاسل دون توفيق :

ـ « هى لا تتصرف كالمورا لسبب بسيط .. إنها مورا فعلاً .. »

ونظرت حولى فى الكهف ..

هذا الصوت ..

لست من العصبيين الذين يمكن للحكايات المخيفة أن تجعلهم يسمعون شتى الأشياء .. أعتقد أنه لم يعد يوجد شىء يخيفنى فى هذا العالم بعد كل ما رأيت . لكنى متأكد من أننى سمعت صوت حركة ..

يواصل ماتويل الكلام :

ـ « طلبت منى أن ألحق بها هنا فى بيتها الريفى .. لما جئت .. قدمت لى شرابا لا أعرف ما هو .. عندما أفقت كنت هنا خاضعا لتعذيب منظم .. إنها تعرف كل أساليب محاكم التفتيش .. »

قلت فى سرى : هذا طبيعى . لقد رأتهم ولربما عذبوها يوما ما ..

ـ « وهل لديك فكرة عما تريده منك ؟ »

ـ « سوف تتخلص منى طبعا . إنها لا ترحم .. »

الصوت يتعالى بالتأكيد .

يئست أخيرًا فتركت هذه الجنازير العتيقة التى تذكرك بأيام محاكم التفتيش ووقفت الهث .. ثم سألته .

ـ « من هى إيزابيلا صديقتها ؟.... ألم تر ما يريب ؟.. أن تعيش مع صفوية من الموراً .. لابد أن تشعر بشىء غريب .. »

قال وهو مغمض العينين :

ـ « لا أعرف من تعنيه . إيزابيلا ماتت منذ عام .. تمزقت فى حادث سيارة مروع ! »

هنا ازداد الصوت ارتفاعًا وراح الكهف كله يهتز .

وتعالى ذلك الزئير المخيف من لا مكان . الأمور تسوء .. لا أعرف ما هو قادم لكنه رهيب ولا أريد أن اراه ..

نظرت له بعينين متسعتين من الذعر فقال وهو مغمض العينين :

ـ « إنه قادم .. رأيته يفتك بالكثيرين .. أما وقد جئت أنت فلابد أن الدور دورى أنا ! »

-8-

كان هناك جدار صخرى صغير ، يسمح لك بأن تتوارى خلفه وتلقى نظرة ..

هكذا هرعت أتوارى ، وأخرجت نصف رأسى لأفهم ...

(جويا) كان هنا بالتأكيد .. لابد أنه رأى هذا المشهد رأى العيان ، ولا أعرف كيف ظل حيا ، لكنه بالتأكيد رسمه بسرعة بالفحم على الورق قبل أن يعود لبيته ويرسمه بالزيت فى مكان مهيب من الدار ..

تسيت لوحة (عطارد يلتهم ابنه) ...

الآن أرى عطارد ..

العملاق المخيف كريه الرائحة الذى يزحف برأس محنية لأن سقف الكهف ليس بهذا الارتفاع .. يزأر ويزوم ويخور ويرغى ويزبد ..

هو قادم من مكان ما .. يمشى فى تؤدة ..

يتقدم نحو الرجل المقيد الذى بالكاد فقد الوعى من الصدمة العصبية .

يمد يده لتطبق بالكمل على جسده ثم ينتزعه من الجدر بسهوله مطلقة . أسهل طريقة لتهشيم السلاسل هي أن تكون عملاقا

هل أستعمل السلاح ؟.. لا جدوى . هذا الشيء اقرب إلى منطاد . يحتاج لصاروخ هروك كي يدمره . لن اكسب سوى إثارة غضبه ..

لم يقاوم الرجل المقيد ، بينما بدأ العملاق المخيف ينفذ حرفيا ذلك المشهد من لوحة (عطارد يلتهم ابنه) .

بالطبع كررها كثيرًا جدًا من قبل ..

انا رأيت الكثير جدًا من الموت ، لكن لا أذكر أنني رأيت مشهد التهام انسان حي هذا كثيرا . لهذا شعرت بأنني أختنق

عضضت على كمي حتى لا أصرخ ..

المشهد يعيد لذهني مخاوف قديمة جدًا ربما تعود لأيام الطفولة . أوليسيوس الذى أطلق على نفسه (لا احد) مع غول السندباد .. فاى فاى فو فام . أشم دماء رجل انجليزى

اسمى لا احد أيها الغول .. اسمى لا أحد ..

تذكر هذا .. أرجوك ...

اغرب الخواطر يتدافع لذهنك فى مواقف كهذه ، والخاطر السخيف الذى ألح على هو ما سيفعله هذا الغول بالسلاسل .. لابد انها مقززة . كنت أكره الحمام الذى تحشوه امى لاننى اقبل الخيوط التى خيطت بها الاحشاء وكانت تقلب شهيتى تماما .. لم اذق الحمام منذ توفيت والدتى .. اى أننى لم أذقه منذ ثلاثين ؟.. أربعين ؟.. خمسين عامًا ؟

حذ الحذر من السلاسل أيها الغول فلربما أثارت الشمسرازك لربما انحشرت بين أسنانك ..

الآن كان يفرغ من وجبته وهو يزار .. لقد صار وجهه رقعة سريالية من اللون الأحمر ...

ان (دونًا) ترينى مصيرى لو اصررت على الرفض ، لكن لا أعتقد أن دورى قادم الآن ..

هل أغادر الكهف ؟.... لا .. ليس الآن ..

ربما يغير الغول خطته لو رآنى ..

هكذا ظللت فى مكمنى أنتظر وأنا أدعو الله ألا تفوح منى رائحة الادرينالين التى تشمها الوحوش بسهولة

كان ينتهى من الوجبة فلم يعد سوى [illegible] ...

ثم زأر مرة أخيرة .. واتجه ببطء نحو داخل الكهف .. أى أنه توغل أكثر ...

يمكننى أن أهرب من المخرج .. حتى لو شعر بى فبوسعى دومًا أن أفر من كائن يزن ثلاثة أطنان .. هو بالتأكيد بطئ الحركة . وبالتأكيد يمكن الفرار منه وإلا لما قيدوا (مانويل) بالسلاسل ..

ابتلعت ريقى وخرجت من مكمنى ..

حاولت ألا أنظر إلى الجدار الذى ما زالت بقايا السلاسل تتدلى منه .. هناك مذبحة دارت تحته .. هناك بركة دم ...

لا أعرف يا مانويل إن كنت محظوظًا أم بائسًا .. ربما كانت هذه النهاية هى أسرع طريقة تختصر آلامك . خاصة وأنت قد عذبت طويلاً بأساليب محاكم التفتيش اللعينة ..

لا أعرف يا مانويل ...

-9-

كنت فى الخلاء من جديد ..

لا يمكن القول إننى هربت .. فقد تعلمت أنها موجودة دومًا وأنها تراقب كل شىء ..

لابد أننى مشيت نحو ربع ساعة ، ولابد أننى ضللت الطريق .. لا أذكر هذه المعالم .. لا أرى أيًا من البيوت الريفية التى رأيتها فى تلك الليلة ..

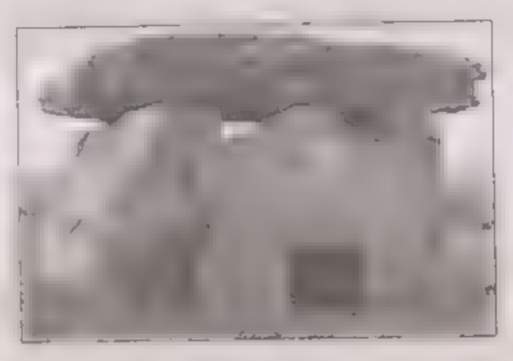
فقط أرى النهر بوضوح تام . نهر مانزاناريس بالغ الأهمية تاريخيًا عديم الأهمية جغرافيًا ... يمكننى أن أدنو منه وأغسل وجهى ...

أتوق لهذا العمل الطبيعى المحض بعد ما مررت به منذ الصباح ..

خلفى أرى مجموعات فريدة من التكوينات الصخرية ..

لم أكن أعرف الفوارق بين هذه التكوينات وبعضها .. بدت لى قريبة جدًا من الهينج الحجرية Stonehenge الغامضة التى تملأ شمال إنجلترا ..

هنا تشبه التكوينات مائدة حجرية عملاقة لها ثلاث أرجل .. ثلاث صخور عمودية مع صخرة افقية تستند على هذا .. هذا التكوين يسمونه dolmen ولا أعرف كيف أترجمه بالعربية ..



يقال إن عمر هذه نحو 4000 سنة قبل الميلاد . وكانت تستخدم كمدافن لفترة طويلة من تاريخ اوروبا .

هناك نوع من الصخور العملاقة يطلقون عليه (الاحجار العظيمة Megalith) استخدمها الناس قديما فى عمل تكوينات صخرية مميزة ..

معظم هـذه الصخور تم استغلاله فى عمل قبور فوق مستوى الأرض . وهذا التكوين منتشر فى الدول الأوروبية فى حوض البحر المتوسط ...

هنا تصلبت وقد سمعت صوتاً يتردد فى ذهنى :

* * *

« المورا المسحورة . تجدها فى الأماكن المقفرة . وتعيش فى قلاع تحت الأرض .. تبنى حصون الجبال والصخور العملاقة المسماة dolmens .. وهى تبدل شكلها بسهولة تامة .. »

* * *

ـ « أسرتى فى مكان قريب . ولربما حالفك الحظ وقابلت أفرادها اليوم .. »

* * *

لكن كيف ؟...

يمكننى بلا مبالغة أن أعد ثلاثين من هذه التكوينات المعقدة .. يمكن أن تكون فى أى واحد منها . ثم هل من الحكمة أن أدخل ؟.. لو كنت محقاً فلابد أن أسرتهـا بالداخل بالداخل .. ذكر ن

(الكينونة) لن تسدى لى أى عون ، وإلا لفعلت ذلك بنفسها .. أنا وحدى تمامًا باستثناء بعض التعليمات الغامضة ..

فيما بعد عرفت ان كل الأساطير البرتغالية والإسبانية فيها مورا ، ودائمًا ما تسكن المورا فى هذه التكوينات الصخرية ...

رحت أمشى لاهثا وسط هذا المشهد الجيولوجى المبهر .. لو كنت دارسا للجيولوجيا لتوقف قلبى انبهارًا أو طلبت أن يدفنونى هنا ..

هل من دليل ؟

كأننى كنت أتمنى أن أحـد اثار أقدامهـا أو مشطها الذهبى المميز .. ليمست الحياة بهذه السهولة ..

لابد من دليل فى كلام الكينونة .. كلماتها دقيقة جدا ومحسوبة بعناية .. ماذا قالت ايضا ؟.. طلبت منى طلبًا عجيبا ان أنزع قميصى كلما وجدت فرصة .. وتكلمت عن الوشم .. ما معنى هذا ؟.. بالتاكيد هى لا تريد أن ترى عضلاتى الهزيلة وقفصى الصدرى الذى يشكل كنزا يحلم به كل طالب طب ..

هناك سبب ما لهذا الطلب ..

كنت ألبس بول أوفر وقميصًا .. لو نزعت القميص فمعنى هذا التهاب رئوى لا شك فيه .. الجو بارد فعلاً ...

على كل حال رفعت البول أوفر والقميص ببطء لأكشف عن بطنى ..

هنا كاد يغشى علىّ ..

لقد كان موشومًا كله .. متى وكيف ؟

العروق الزرقاء المخضرة تجرى هنا وهناك .. رسم معقد جدًا يذكرنى بفيلم (الرجل المرسوم) الذى كان من أفلام الرعب الشهيرة فى الستينات .

كيف لم ألحظ ذلك ؟.... السبب هو أننى لم أستحم منذ يومين أو ثلاثة ، كما أننى أستبدل ثيابى وظهرى للمرآة ومن دون عويناتى ، فلم أر هذا التغيير .. دعك من أن الطقس بارد لا يغرى بأن يكشف المرء عن جسده لأى سبب ..

كان الوشم موجودا منذ فترة لا أذكرها ..

متى ومن وضعه ؟.. هذا عمل سحرى لا شك فيه ..

المشكلة الأخطر هى : هل يزول ؟.. لن أقضى حياتى كأننى فقرة فى السيرك ..

نظرت حولى لأتأكد أنه ما من أحد يرانى ، ثم نزعت البول أوفر والقميص والفانلة الداخلية ثم [illegible] ارتجف

من البرد ، وانحنيت عليه كما فعل الأخ (نركيسوس) يوما ما فضناه العشق لصورته وانتحر هناك .. لقد حسب الصورة المنعكسة وجه عروس بحر حسناء قاسية لا مبالية ...

أما أنا فقد خيل لي أن هناك أخطبوطا أو وحشا بحريا ينظر لي من تحت الماء ...

الماء رائق حسن . من زاوية معينة وعندما تبتعد الأسماك الوافرة ، يمكنني أن أرى المرسوم بوضوح كأنها منعكسة في مرآة .. استطعت أن أرى أن هناك شبكة من النقوش تتناثر هنا وهناك . هناك رموز مبهمة في عدة مواضع على كتفي رأيت رموزًا كهذه محاطة بنجوم :

ᗡ-7Ɩ-ꟻ

Ǝ – 66Ɩ-Ǝ

لحظة .. إنها انعكاسات لذا هي مقلوبة . يمكن بشيء من الخيال أن أفترض أنها تقول :

F-17-D

E – 166 -E

أين رأيت رموزًا كهذه ؟.. طبعا .. أنت تتذكر . على ظهر الصور التي سرقتها من منزل (دونا) ..

(دونا) قامت بعمل رموز لمدينة ملاهي الرعب هذه لتحدد أين التقطت كل صورة ... إذن يمكنني أن أحدد مكان عطارد وأسه . ومكان اجتماع الساحرات .. الخ ..

من رسم لي الوشم نقل هذه الخريطة ليساعدني .

إذن .. هناك على صدري نحو ثلاثين دائرة متداخلة ، لكن هناك دائرة في المركز مزينة بزخرفة خاصة .. الدائرة تحمل حرف M . لا مشكلة في أن يكون مقلوب لأنه متماثل

يمكن أن أقول دون خطأ كبير أن الرمز M موجودة في هذه النقطة . مركز التكوينات الحجرية المحيطة . .

لأول مرة تمنيت لو كان باستطاعتي سلخ جلد صدري وبطني لأتمكن من قراءة الاتجاهات بوضوح . أنا كالرجل الذي يحمل لافتة كبيرة على قفاه فلا يقدر على قراءة ما بها .. لن أستطيع التحرك حسب الخريطة بدقة . لكني على الأقل أعرف أن علي أن أتجه لمركز التكوينات الحجرية لو أردت أن أذهب لها ..

هل أذهب لها ؟ ..

وماذا أفعل عندئذ ؟..

-10-

الآن وأنا وحدى بين هذه الأطلال توصلت الى بعض الحقائق ..

عندما جاءت إيزابيلا إلى شقتها ووجدتنى ، تشاجرت قليلاً ثم دخلت لتتشاجر مع صديقتها .. فى الواقع كان حواراً بالاسبانية وربما لم أسمع (دونّا) تتكلم قط ...ربما خيل لى هذا ..

عندما نزلت إلى الشارع مع دونّا دار حوار عام ، لكننا لم نذكر (إيزابيلا) بحرف .. كلامى لم يوضح أنها رأتنى وطردتنى ، بل لعل (دونّا) حسبتنى غادرت الدار لأننى سرقت الصور لا أكثر ...

النتيجة: هى لم تعرف أننى قابلت إيزابيلا .

قال ماتويل قبل موته إن إيزابلا ماتت فى حادث مروع منذ عام .

لم تكن هناك إيزابيلا إذن .. (دونّا) كانت تعيش وحدها فى الشقة وكانت تكذب ...

لكننى رأيت إيزابيلا فعلاً .. فما معنى هذا ؟

هنا أتذكر كذلك أننى كدت أغيب عن الوعى بينما أنا أكلم إيزابيلا ..

« شعرت بالدوار للحظة واهتزت صورتها فى عينى ، ثم استجمعت وعيى وأخذت شهيقاً عميقاً »

يبدو أننى فقدت الوعى فعلاً ... مثلما يحدث لمرضى الصرع عندما لا يدركون أنهم فقدوا الوعى إلا عندما يكتشفون أن عقارب الساعة تحركت نصف ساعة كاملة وهم واقفون أمام المرآة ..

هذه هى المنسية الوحيدة التى يمكن أن تكون قد رسمت لى فيها هذا الوشم على جذعى .. بسرعة ؟.. وهل هذه الكائنات تعمل حسب قوانين الفيزياء ومنطقك العادى ؟..

الاستنتاج الوحيد الممكن هو أن إيزابيلا ــ على الأقل التى رأيتها أنا ــ هى الكينونة ..

هذا سهل وواضح ومن الغريب أنه لم يخطر لى حتى هذه اللحظة . لقد ظهرت فى القصة فى لحظة مناسبة وساعدتنى دون أن أعرف هذا ...

* * *

الآن أنا عند العلامة بالضبط ..

أنا عند مركز تلك التشكيلات الحجرية . الموضع الذى كان عليه رمز M ...

يمكنك كما قلت أن تتخيل شكل هذا الـ dolmen .. مائدة حجرية عملاقة تقف على ثلاثة أرجل غليظة . ارتفاعها ستة أمتار ..

هناك باب هو الذى كانوا يستخدمونه فى الماضى للدفن .. يمكننى أن أرى كذلك عظام حيوانات متحجرة هنا وهناك لهذا اعتقد الأثريون أن مذابح معينة كانت تصاحب عمليات الدفن .

هل من الممكن أن ...... ؟

ربما ....

* * *

خطوت إلى الداخل فى الظلام ..

انتظرت حتى اعتادت عيناى الظلام نوعا ..

تلك الرائحة ....

أرى الجدران الرمادية وأدرك أن المكان متسع .. أعتقد أنه أكبر من أبعاده كما تراها فى الخارج . لا مشكلة .. ليس هذا

هراء .. لقد رأيت الأعاجيب اليوم ولن أندهش من هذه الهلوسة الهندسية ...

هل هناك ثعابين بالمناسبة ؟

على الأرض وجدت زجاجة مياه معدنية فارغة وزجاجة جعة .. كانت هناك أخشاب متفحمة كأن أحدهم أشعل نارًا منذ زمن .. هناك كذلك كيس به بقايا خبز متعفن ... وأربع لفافات تبغ .

ابتسمت ..

كان هناك شباب هنا منذ زمن .. ربما كانا عاشقين قررا أن يختليا بعيدًا عن العالم . ليس المكان مخيفًا إذن كما أعتقد ... لقد تلاشى على الفور جو القبر المخيف ليصير مجرد مكان نزهة خلوية ..

نظرت إلى ركن المكان فأدركت أن هناك بابًا محفورًا فى الحجر . غالبًا يقود لتكوين حجرى آخر .. هذا شىء لم يبد واضحًا من الخارج .. على قدر علمى كان هذا التكوين منعزلاً ولم يكن هناك شىء ملاصقًا له ..

دنوت من الباب وتلمسته بيدى ..

هناك كتابة فعلاً ... برناردو ولوتـ [illegible] هذان شابان أرادا أن يخلدا حبهما للأبد ..

لكن المشكلة هى كيف أجتاز هذا الباب وأنا لا أملك كشافًا .. من الواضح أن الظلام دامس تمامًا بالداخل ..

نظرت للأرض فوجدت علامة ممتازة كنت أبحث عنها ..

الكشاف ..

الكشاف الذى كانت دونًا تحمله عندما اقتادتنى إلى الكهوف أول مرة ..

من الممكن أن يكون قد سقط منها ، لكن المصادفات لا تتم بهذه السهولة . هى أرادت ان أجده وأدخل .. هذا يعنى انه كمين ...

لكن لا .. الأمور كذلك ليست بهذا الوضوح وهذه السذاجة ...

بل هى دعوة .. تدعونى للدخول .. فهى تعرف أننى لست أحمق ...

مجرد رسالة تقول لى فيها. أنا هنا .. لا تبحث أكثر ...

-11-

عندما دخلت الموضع التالى رحت أصوب الكشاف على الجدران .. كانت هناك نتوءات كثيرة بارزة تلقى ظلالاً غامضة .. تتحرك ... .

مشهد يجلب التوتر فعلاً . الظلال أنشط وقود للخيال ربما باستثناء عقار الهلوسة LSD ..

يمكنك أن تشعر كأن هناك شخصًا فى كل ركن ..

هناك بالفعل عظام على الأرض .. عظام آدمية عتيقة جدًا .. لا يعنى هذا على الأرجح أن هناك من ماتوا هنا ، بل يعنى أن المكان كان مقبرة ..

مشيت فى حذر بحثًا عن أحد .. شىء ما .. هذه مخاطرة لأن قلبى ضعيف فعلاً ، ولو ظهرت واحدة تقول لى (بخ) من وراء أى نتوء صخرى فسوف أسقط ميتا .. أى إن عدوى الحقيقى هو الخوف وليس ما يسبب الخوف ..

هل النيتروجلسرين معى ؟.. للأسف لا ..

فجأة صوبت ضوء الكشاف لأعلى بحثًا عن وطاويط .. لو لم تكن هنا وطاويط فلا وجــود لها فى العــلم . ولكنــ مجرد أكذوبة بيولوجية ..

لكنى لم أجد وطاويط ..

وجدت صقوبات ..

* * *

كانت هناك متراصة على السقف .. تتمسك به بممصات لا أراها .. بعضهن مقلوبات يتدلى شعرهن فى الهواء وينظرن لى باسمات ..

بعضهن يمشطن شعورهن بأمشاط صغيرة من ذهب ...

هناك من تزحف على الجدار مقلوبة كالبورص نازلة نحوى .. وهناك من تتلوى نائمة .. فقط هى تضطجع على السقف لا على الأرض ... يبدو أن اللون الأبيض سمة عامة فى ثيابهن ..

لوحة رائعة لجويا لو كان قد رسمها ، لكن من الواضح أنه لم يكن أحمق لهذا الحد .. بالتأكيد لم يدخل هنا ..

« أسرتى فى مكان قريب .. ولربما حالفك الحظ وقابلت أفرادها اليوم .. »

« أسرتى فى مكان قريب .. ولربما حالفك الحظ وقابلت أفرادها اليوم .. »

يبدو أن الحظ حالفنى فعلاً ... هناك العشرات منها ..

بالتأكيد كنت أتمنى أن تكون هذه وطاويط ..

هكذا لم أعد أنظر فى اتجاه آخر إلا إلى السقف .. هذا مأزق مخيف .. من الوارد فى أية لحظة أن يسقطن فوقى كأنه انهيار صخرى .. سوف اسقط ارضا مع أول واحدة تهوى على ثم يزداد الجبر ارتفاعا وينتهى أمرى .. لن يجدن وقتا لعمل أى شىء لأننى سأكون قد مت فعلاً ..

أن رأيت جثة الرجل التى تمزق عنقها وأعرف ما هن قادرات على عمله برغم مظهرهن الفاتن ..

هناك أحمق جرؤ على اقتحام الـ dolmen .. جرؤ على دخول عقر دارهن ولن يعيش ليحكى ما رآه ...

بدأت أرجع للخلف قاصدا المكان الذى جئت منه ... هذا هو الحل الوحيد

ثم سمعت صوت الارتطام وعرفت أن الوقت قد فات ..

لقد هوت اثنتان خلفي لتسدا الطريق ، وكانتا تضحكان . تتكلمان بالإسبانية .. تشبهان دونا نوعا لكنهما ليستا هي ..

وأمامي هوت من السقف واحدة أخرى ..

لهن طريقة غريبة في السقوط تذكرك بقنديل ماء يلتف حول نفسه وهو يهبط للقاع .. ثم فجأة تجدها أمامك واقفة وبكامل لياقتها ...

الآن صرت وسط أربع منهن ..

رأيت هذا المشهد مرارا في أفلام هامر عندما تستيقظ مصاصات الدماء ويفتحن التوابيت ويحطن بالضحية البائسة .

لا أعرف كيف خطرت لي هذه الفكرة .. لكني انتزعت البول أوفر الذي ألبسه وألقيته جانبا ، ثم فتحت القميص لاكشف عن الوشم على صدري وبطني ..

صوبت ضوء الكشاف ليرين أفضل ...

هنا وجدت أن حماستهن قد تضاءلت ..

تراجعن للخلف وعيونهن لا تفارق هذا الوشم ...

نعم هو الوشم .. لا أعتقد أن منظر ضلوعي هو ما أثار رعبهن لهذا الحد ....

إذن هناك رمز فعال .. رمز يخيفهن ....

ليس كل الوشم خارطة تبين هذا التكوين الصخري المعقد ..

رفعت عقيرتي وصحت مناديا :

ـ « دونااااااااااااا ! »

لا رد ..

عدت أصيح :

ـ « دونااااااااااااا ! »

جميل أن الاسم ينتهي بحرف ألف .. هذا يعطيك فرصة لا بأس بها لإخراج الانفعال ..

استدرت فجأة لأجد أن دونا تقف هناك خلفي وهي تبتسم ابتسامتها العذبة . تقريبا لم يعد هناك لون أبيض في عينيها بسبب الأهداب السوداء الكثيفة مع القرنية الكبيرة ..

قالت لي وهي تعقد ذراعيها على صدرها :

ـ « يبدو أنك عرفت طريقي وجئت .. والآن ما قرارك »

قلت وأنا أنظر للأرض :

ـ « سأكون معك للأبد .. لن أتركك .. »

ـ « جميل .. »

ـ « فقط لنخرج من هنا .. لنعد إلى مدريد .. أرجوك .. »

كنت أشعر بالضبط بما يشعر به من يبيع روحه للشيطان في القصص ..

استدارت ونظرت للصفوبات المحيطات بي وقالت بضع كلمات بلغة لم أتبينها .. بالتأكيد ليست الإسبانية .. هكذا بدأت الفتيات المخيفات غير الميتات يتراجعن .. بعضهن تسلق الجدار لأعلى بسهولة تامة . مزيج مخيف من الأنثى والفأر والبرص والوطواط لكن منظر الأنثى هو الغالب طبعًا ..

ثم اتجهت دونًا للمخرج فعرفت أن على أن ألحق بها

كانت تمشي في ثبات وتؤدة فوق الصخور ولم تنظر خلفها على الإطلاق ...

عندما خرجنا إلى القاعة الأولى التي دخلت منها أول مرة حيث كان الفتى وحبيبته يتناولان وجبتهما يوم ما .. قلت لها بصوت هادئ :

ـ « دونًا .. »

ـ « نعم ؟ »

واستدارت نحوي في ذات اللحظة التي ضغطت فيها على زناد المسدس ..

وانطلقت الرصاصة لتلهب رأسها بالضبط في جبهتها ...

-12-

المسدس الذى وجدته مع جثـة ذلك الرجـل .. الرجل الذى مزقت المورا عنقه ...

كان لصا أو رجل عصابات .. وقد بدا لى المسدس ثقيلا ذا تاريخ أسود . لكنى دسسته فى جيبى وقررت أن أستخدمه متى سنحت الفرصة . طبعا ما كنت لاستعمله مع عطارد العملاق .

لقد فجرت رأس دونا ولست نادما على ذلك .. هى ليست كائنا بشريا لأشعر بالحزن .. ليست كائنا حيا أصلا ..

كانت يدى ترتجـف وقلبى يتواثب ، ورائحـة البارود تعم المكان ، بينما صوت الطلقة يتردد كعواء النسور فى أذنى .. صدى .. صدى .. صفير .. صفير ...

لكنها كانت واقفة ! .. وكانت تنظر لى وتبتسم .. !

قالت فى هدوء وكأنها تلوم طفلاً شقيًا :

ــ « كلما خطر لى أنك تحسب نفسك خبيرا فى عوالم ما وراء الطبيعة شعرت برغبة قاتلة فى الضحك ... أنا مورا . لا يمكن قتلى .. ألم تفهم هذا ؟.... كنت هنا قبل عصر جوبيا وسوف أبقى طويلاً ... كنت أحسب لديك خططًا أفضل من المسدسات .. »

ثم ألقت نظرة على قميصى المفتوح وبطنى وصدرى وقالت:

ــ « لا شك أنك لم تفهم كذلك أننى من رسم لك هذا الوشم ! »

هنا ارتجفت ..

بالفعل .. معها حق . هناك فترة ظللت فيها فاقد الوعى تحت رحمتها تماما عندما كنت فى المخدع . لو كان الوشم موجودًا قبلها لرأته وانتزعته بالسكين (وهى قادرة على ذلك) ..

هى التى وضعت الوشم بينما أنا فاقد الوعى فلماذا ؟

كأنما سمعت صوت خواطرى قالت:

ــ « أردت أن أقودك إلى هنا بكامل إرادتك الحرة .. »

ــ « لكن الصقوبات أصبن بذعر عندما رأين الوشم .. إنه معاد لهن .. »

ــ « لأنهن عرفن من الوشم أنك لى .. ما من واحدة تجسر على الاقتراب من شىء يخصنى . إننى أوقع الرعب فى قلوبهن .. »

ــ « وإيزابلا التى ماتت ؟ »

ــ « من قال هذا ؟.. مانويل ؟ ... عندما تظل معلقًا لجدار بضعة أسابيع لن تقول عبارة واحدة مترابطة المعنى ..

إن إيزابلا شريكتي في المسكن في مدريد وبصحة جيدة ولا تعرف عني الكثير .. أما عن تلك التي تحميك ... ... »

ثم فكرت قليلاً وأردفت :

ــ « أنت حسبتها هي من رسم لك هذا الوشم خطأ . أنا أنتصر عليها في كل لحظة نصرا جديدا .. إنني أقهرها قهرا وهي تعرف هذا .. يمكنك أن تفهم الآن لماذا اخترتك أنت دون البشر .. أنت الذي تشمله برعايتها وبصائحها . لكنك مجرد طفل في يدي »

كنا الآن قد خرجنا ورحنا نمشي بين التكوينات الصخرية .

ابتعدنا أكثر ... وكانت الشمس الحارقة تغمر كل شيء . شمس قادرة على أن تشوي دجاجة بلا مبالغة ..

شممت رائحة كريهة إلى حد ما .. وعندما دنوت أكثر رأيت نسرين يحلقان مبتعدين ...

هناك حفرة .. دنوت منها وألقيت نظرة ..

كانت جثة ذلك الفرنسي الأصلع طويل الشعر لقد مزقت النسور أكثر وجهه وثيابه لكن ظل بوسعي أن أرى ملامحه

ليس هو ! ...

يشبهه لكن ليس هذا هو من كان يحتضر وكنت أكلمه .. الإصابات مختلفة تمامًا .. الساق مهشمة لكنها ليست الساق ذاتها ... دعك من أنني لم أترك جثته هنا .. هذه الحفرة أراها لأول مرة ..

من الذي قدم لي أهم معلومات في هذه القصة ؟.. من أخبرني بقصة الصقوبة والمورا ؟.. ذلك الفرنسي ميشيل ..

كان مصابًا لكنه كان في موضع آخر وكان مصابًا بطريقة أخرى .. وعلى الأرجح لو ذهبت إلى حيث تركت جثته فلن أجدها ..

لقد مات الفرنسي فعلاً هنا ..

أما من قابلته وصارحني بكل هذا فقد كان شخصًا آخر .. شخصًا قادرا على تغيير الشكل Shapeshifter .. الكينونة !!

قالت لي دونًا بلهجة آمرة:

ــ « إنه الفرنسي .. ماذا تريد هنا ؟.. لقد انتهى كل شيء .. »

لم أرد .. اتجهت نحو النهر الذي يترقرق على بعد خطوات .. وانتزعت قميصي وعويناتي ثم خضت في الماء .. شعرت بأنفاسي تتقطع لكن الشمس الحارقة التي غمرت المكان جعلتني قادرا على أن أتحمل ..

صاحت آمرة :

ـ « ماذا تفعل ؟.. ليس لدينا وقت كاف .. »

قلت وأنا أخوض فى الماء أكثر :

ـ « أريد أن أبتـرد قليـلاً ... روحى نفسها قـد احترقت بلا مبالغة .. »

أنا لا أجيد السباحة .. لو لم أجد أرضًا تحت قدمى ينتهى كل شىء ، ولهذا صرخت فى ذعر:

ـ « دونا .. أنا أغرق ... »

وقفت على حافة النهر تراقبنى وأنا أغطس تحت الماء وأبصق ثم أرفع رأسى ..

ـ « دونا ! »

قالت فى غيظ :

ـ « غبى .. غبى .. أنا لا أستطيع السباحة . »

ـ « إذن ساعدينى .. هاتى يدك ... »

دنت من الماء كقط متوجس متشائم ، وأعطتنى يدها فى حذر وهى تضغط بقدمها على الصخور كى تكتسب عزمًا يتيح لها جذبى ..

لكنى لففت يدها بسرعة ، وسرعان ما كنت أجذبها بأقوى ما عندى لتسقط على بعد مترين من الشاطئ .. وسط الماء .. وقبل أن تصرخ أو تفهم ما يحدث كنت أثب فوقها لأغمرها تحت الماء غمرًا .. كانت واهنة جدًا .. لم أتوقع أن تكون بهذا الضعف فى الماء ...

« مورا إنكانتادا Moura Encantada .. أى المورا المسحورة .. تجدها فى الأماكن المقفرة ، وتعيش فى قلاع تحت الأرض .. تبنى حصون الجبال والصخور العملاقة المسماة dolmens .. وهى تبدل شكلها بسهولة تامة وتبتعد عن مسطحات الماء .. »

« تبدل شكلها بسهولة تامة وتبتعد عن مسطحات الماء .. »

« وتبتعد عن مسطحات الماء .. »

« مسطحات الماء .. »

« المـاء .. »

« المـاء .. »

كنت أرتقب مقاومة أكبر .. أن تغرقنى معها وأنا لا أجيد السباحة .. لكنهـا بدت لى كطفلة [illegible] حتى [illegible]

بشفقة عليها وأنا أبقى رأسها تحت الماء . وللحظة خطر لى أننى قد أكون مخطئاً ...

لكنها أراحتنى من هذا عندما بدأ وجهها يعود لصورته الأولى .. الصورة التى تتوارى خلف ملامح الحسناء ذات الجمال العربى . أراحنى هذا كثيرا لأننى أدركت أننى لا أغرق فتاة واهنة ولكن أغرق شيطانًا ...

(دونّا) تقاوم ..

(دونّا) تشهق ..

(دونّا) تخرج الماء من منخريها ..

(دونّا) تموت ..

وفى النهاية همدت حركتها ... همدت تماما لكننى ظللت مبقيًا رأسها تحت الماء أطول فترة ممكنة . هل أنا أحلم أم أن الوشم يزول ببطء عن صدرى ؟....

خضت الماء والوحل نحو الشط .. وتسلقت بصعوبة حيث وقفت أرتجف وأبحث عن عويناتى .. سوف ألبس القميص على جسدى المبتل فلا وقت لانتظار أن أجف .. دع الشمس تتولى الأمر ..

لما نظرت للماء من جديد رأيت أنه لا وجود لها .. لقد تحولت إلى رغاو خضراء كثيفة تسبح ببطء مع التيار ..

التقطت أنفاسى ..

وفجأة اهتزت المنطقة كلها ودوى انفجار مرعب ..

كأنه انفجار فى محجر فى الجبل ..

وتصاعدت سحابة دخان كثيفة من بعيد .. من بين تكوينات الصخور الحجرية .

لا أحتاج لذكاء كبير كى أعرف ما حدث ومن فعله ...

لقد انفجر الـ dolmen .. سوت صخوره العملاقة على من فيه من صغويات ...

من فعل هذا هو (الكينونة) طبعًا ..

كانت تنتظر لحظة القضاء على (دونّا) لتفعل ذلك .....

خـاتمـة

عزيزى رفعت :

أعتقد أنك فهمت الآن نصائحى كلها ، وقد كان بوسعى أن أنصحك بموضوع الإعدام بالماء لكن هذا غير مسموح به لنا . ليس مسموحًا أن نعطى الفانين علمًا أكثر من اللازم . عليهم أن يعرفوا الكثير بأنفسهم ، وأنت تعرف عقاب بروميثيوس الذى سرق النار وأهداها للبشر فى الأساطير الإغريقية .. لقد قدم لهم حلاً سهلاً لذا عوقب بأن يعلق بين جبلين للأبد ويلتهم الرخ كبده كل يوم ..

ما إن تم الإعدام حتى صار بوسعى أن أفجر القبر الحجرى على من فيه أو ما فيه . طبعًا هن لا يمتن بهذه البساطة ، لكنهن سيبقين محبوسات لعدة أجيال .

سرنى أنك تلقيت التلميحات بهذه السهولة وانتفعت بها .

بإخلاص

أنت تعرف من

* * *

عزيزتى :

تعليماتك كانت عظيمة النفع لى . وإن كان أهم ما قدمته لى (دونًا) هو تلك الخارطة الموشومة التى قادتنى لها . يخيل لى أحيانًا أنها أرادت أن أقضى عليها .. لقد اشتهت أن تنهى حياتها .. يبدو أن الحياة للأبد كعقوبة أمر قاس حقًا .. كان بوسعها ألا تدعونى إلى الضاحية أصلاً .

كانت فكرة ذكية منك أن تتنكرى كميشيل المحتضر .. فى لحظة معينة من القصة حسبتك إيزابيلا صديقة دونًا التى طردتنى من شقتها ليلاً . ثم تبين أننى كنت مخطئًا .

بإخلاص

رفعت إسماعيل

* * *

عزيزى رفعت :

أنت لا تفهم القواعد أو تفهمها وتتناساها .. كان يجب أن ترى اللوحات السوداء الحية وأن تعرف ما أنت مقبل عليه . هذا جزء ضرورى من اللعبة ومتعتها .. كان عليك أن تخضع لها وانت تعرف جيدا من هى وما أنت مقبل عليه .

كما قلت لك إن عالمنا ملىء بالقواعد ومعقد جدًا ، مما يجعل حياتكم غاية فى البساطة .

إيزابيلا صديقة دونا ماتت منذ عام فى حادث مروع .. أنت تعرف أن دونًا هى التى فعلت، هذا غالبًا كى تظفر بالشقة وحدها ، أو لأن إيزابيل عرفت أكثر مما يجب . من الصعب أن تعيش مع مورا فى شقة واحدة ولا تلاحظ شيئا مريبا . أما عن ظهور إيزابيل التى ماتت لك وكلامها معك ، فلأمر يطول شرحه .. لكنه ـ كما تحب أن تقول أنت ـ قصة أخرى .

بإخلاص

أنت تعرف من ..

تمت بحمـــد الله

دكتور رفعت إسماعيل مع القراء

ولماذا لا أفسح المجال لبعض الاجتماعيات ؟..

لست أقل شأنًا من غيرى فى هذا الصدد . المشكلة هى أن ذاكرتى ضعيفة تفلت منها عشرات الأحداث المهمة . أولا ضمن حملة (الكتابة للجميع) التى تكلم عنها صديقى (محمد هشام عبيه) ، كانت هناك عشرات من حفلات التوقيع .. تقريبا أصدر كل واحد من أصدقائنا الذين أصابتهم عدوى الكتابة الفيروسية كتابًا ، واستحق التهنئة عليه ...

البعض مخضرم مثل د . تامر إبراهيم و د. ميشيل حنا وشريف ثابت وأحمد مراد ... والبعض يصدر كتابه الأول مثل وليد فكرى وكتابه الممتع (تاريخ شكل تانى) .. تامر فتحى .. ساره شحاته .. الخ ...

لهذا أقدم لهؤلاء جميعًا تهنئة جماعية واجبة ...

ثانيًا : حضر المؤلف حفل زفاف فنان الكريكاتور الجميل د. (شريف عرفه) الذى تحاول البرمجة اللغوية العصبية انتزاعه من عالم الكريكاتور ، وكلاهما انتزعه من عالم طب الأسنان كما يبدو .. (شريف عرفه) هو نسخة أخرى من (علاء عبد العظيم) كما تعرفون ، وله مكانة خاصة عند العائلة ... ألف مبروك ..

كذلك حضر المؤلف فى الاسكندرية زفاف صديق مخضرم هو (محمد حسين) هو وشقيقته (دعاء) من الاعضاء المؤسسين لمنتدى روايات . والعروس شقيقة عضو مهم جدا فى منتدى روايات هى (مروة) .. باختصار كان للحفل الرقيق طابع روايات مصرية للجيب بشدة ألف مبروك ..

ومن ضمن المجاملات الضرورية نهنئ أديبنا الشاب الواعد الذى نفذ وعوده فعلا (محمد فتحى) الصحفى القلباوى ومدرس مساعد الإعلام بالجامعة .. نهنئه على فوز مجموعته القصصية (جوار رجل أعرفه) بجائزة ساويرس الأدبية ..

لما كنت أكتب هذه السطور على الكمبيوتر . فلسوف تتمدد هذه الفقرة مع الوقت كلما تذكرت مناسبة جديدة أو تهنئة جديدة .

الآن مع الخطابات ...

الصديقة (عبير) وخطاب عبر البريد الإلكترونى كتب بإنجليزية جيدة جدًا . لن أذكر باقى الاسم لانها أم لطفلين هما عمر وسلمى (تقول إن هذا لا علاقة له بالفيلم لحسن الحظ) . لا أدرى إن كنت سأضايقها لو ذكرت الاسم كاملاً مع اعترافها بأنها تقرأ لى .. طبعا لا عيب فى هذا لكنى أفترض الحساسية الزائدة . تقول انها كانت مريضة فاصطحبها زوجها لطبيب نحيل يعيش فى الروضة . فوجئت عندما رأت الرجل بأنه نسخة منى .. نحيل أصلع شقته مغطاة بالغبار . من قال لك إن شقتى مغطاة بالغبار ؟ . إن لم (شخص ما) التى تعنى بشقتى تخفى الغبار تحت السجاجيد . لكنى مشوق فعلا لرؤية هذا الطبيب . منذ أيام ارسل لى صديق سكندرى هو (أحمد الديب) صورة طبق الأصل لى ، وكتب على الرسالة (تم ضبط وإحضار د . رفعت إسماعيل) . الخطاب ملىء بعبارات شكر رقيقة .. لاحظت أن عدد خطابات الهجوم أو اللوم أو التوبيخ قل جدًا ، ولعل السبب أن القراء يئسوا من أن أتغير . من العسير فعلا أن يتغير من كان فى سنى .

أشكرك كثيرًا جدًا على هذا الخطاب الرقيق المصرى ،

الصديقة داليا (فقط) ـ القاهرة

داليا فى الرابعة عشرة من عمرها . تقول إنها قرأت لى كل شىء ، وتتساءل لماذا أطلق على هتلر (الذى هو أروع شخص عرفته البشرية) لقب السفاح . تذكرينني يا داليا بالإشاعة التى انتشرت أيام الحرب العالمية أن هتلر مسلم سرًا ويدعى (محمد هتلر) وأنه جاء كي يحرر البشرية من اليهود . كون الرجل يقتل اليهود لا يجعله بالضرورة ملاكًا يا داليا .. الرجل كان عنصريًا وفى كتاب (كفاحى) يعتبر كل الأفارقة قردة هبطت من الأشجار ، ويقول بالحرف تقريبًا: (كيف نأتى بقرد هبط من شجرة لنجعله محاميًا بينما مئات من أفراد الجنس الأسمى لا يجدون عملاً ؟) هل هذه كلمات أروع رجل فى البشرية ؟ . لا أعتقد أنه كان سيصير ملاكًا لو هزم البريطانيين ودخل مصر . دعك من أنه بشكل ما مسئول عن ميلاد إسرائيل، لأنه أرغم الغرب على أن يحل المشكلة بطريقة سهلة هى تصديرها لنا .

تخبرنى داليا ببعض مصطلحات الشباب الحديثة بما أن المؤلف كتب مرارًا عن هذا الموضوع :

فاكس : وتعنى غير مهم أو تجاهل الأمر .

نيبيت : وهى تستعمل عندما تريد ان تشتم شخصا ما ولكنك لا تريد استعمال لفظ قبيح .

فكك : أى دعك منه

كبيبيك : جدًا ..

شكرًا يا داليا .. هناك نقاط كرهتها جدًا فى خطابك ومنها كل هذه اللعنات المنهمرة على أناس معينين .. لا أستطيع أن أتكلم بصراحة أكثر ، لكنى مصر على أن هذا أسلوب خاطئ تمامًا . لو كانت هناك مشكلة فإننى أرجو أن تصارحينى بها .

الصديقة كروان (اسم مستعار) ـ المملكة العربية السعودية

لم أتعمد هذا لكن كل خطابات اليوم من صديقات .. لن تكون هناك اليوم شوارب أو رائحة تبغ على ما أعتقد . تقول صديقتى إنها سيدة سعودية الجنسية (أب سعودى أم مصرية) ولكنها أقرب إلى المصرية ، حيث أنها قضت أغلب سنوات عمرها فى القاهرة حيث أتمت دراستها فى جامعة عين شمس ، ثم تزوجت

وأنجبت . أحبت ما وراء الطبيعة التى وجدتها فى بعض المنتديات ، ومنها منتدى للروايات يطلب إنتاجًا أدبيًا من أعضائه . تسألنى :

« سيدى .. هل فكرت ذات يوم أن يعود رفعت إسماعيل إلى الماضى .. أو يستيقظ من نومه ذات مرة ليجد نفسه فى المستقبل ...؟.. لذا فأنا أطمع فى كرم سيادتك وحبك للأدب وتشجيعك لكل من يهوى الكتابة بان توافق لى على استخدام شخصية دكتور رفعت إسماعيل فى هذا الموضوع مع وعد منى بأنى سأرسل لك الموضوع قبل أن أنشره عبر صفحات النادى »

أى أن الصديقة العزيزة تطلب السماح لها باستعمالى !!... طبعًا موافق ومتحمس لقراءة ما ستقدمين .. لا مشكلة هناك .. تطلب كذلك استضافة المؤلف كضيف على المنتدى لإجراء حوار . فى الواقع يا صديقتى العزيزة ، المؤلف يعتذر عن الندوات والأحاديث الصحفية منذ عام أو عامين .. كل شىء قد قيل من قبل ولم يعد هناك جديد فعلاً . الأسئلة نفس الأسئلة والإجابات نفس الإجابات .. أقترح أن نؤجل هذا اللقاء عامًا آخر ليعطى نفسه فرصة التجدد .

أكرر شكرى واحترامى ..

الصديق شاهر (فقط) - سوريا :

أول شارب يظهر اليوم .. هذا يستحق احتفالاً صغيرًا . يقول شاهر: " لاأدرى لماذا تريد إنهاء سلسلة ماوراء الطبيعة .. سيدى نحن من جيلك وأنت من جيلنا .. ويجب أن تظل تمتعنا مابقيت لك حياة .. نحن بتاتا لا نفضل أن تنهى القصة عند الرقم الذى حددته .. أنا شاب عمرى 24 سنة أقول لك هذا .. تلك السلسلة دافئة جدًا .. كيف تريد لنا أن نستغنى عن الدفء بتلك السهولة ؟؟.. رفعت إسماعيل يجب أن يعيش مادمت أنت على قيد الحياة .. هذا موضوع تكلمنا عنه كثيرًا يا شاهر وأشكرك على هذه الكلمات الرقيقة ، لكن لا يجب أن يستمر رفعت لمجرد أنه يجب أن يستمر .. هناك لحظة توقف ضرورية ويجب أن يتم اختيارها بعناية ، وإلا هدمنا كل ما بنيناه معًا ، وقتها لن يترك رفعت العجوز فى ذهنك إلا السخرية والملل .. صدقنى .

يقول شاهر كذلك: "بالنسبة لفانتازيا أرجو أن تعمل رواية مع سفينة تايتانيك حتى وإن كنت لا تحب الفيلم .. بإمكانك عمل رواية عنها لتعرض فيها أسباب كرهك للفيلم مع سخريتك المعهودة .. كما أرجو أن تجعل عبير مع أبطال هوليوود فى

رواية طويلة من جزئين أو ثلاثة تظهر فيها أغلب أبطال هوليوود .. »

الفكرة الثانية جميلة جدًا وراقت للمؤلف كثيرًا لكن الأولى صعبة .. بطالب شاهر بموقع الكترونى للمؤلف يتيح له التواصل مع القراء .. كان هناك واحد فعلاً ، لكنه توقف لأسباب يطول شرحها ، وعرض أصدقائى القراء عمل موقع جديد .. لكن من الواضح أن مشاغل الحياة وتعقيداتها تجعل الأمر عسيرًا .. حاليًا يعتبر المؤلف مدونة الصديق (عمرو عبيد) موقعه الخاص .. إنها جميلة ومطروقة ومرتبة جيدًا وتتجدد باستمرار ..

http://ahmed-khaled-tawfik .blogspot .com

الصديقة شيماء حسن الديب ـ طنطا:

الصديقة العزيزة طالبة الآداب التى تركت فى القسم ثلاثة خطابات : للمؤلف .. لى .. لعبير .. مع (سبوع) ابنة أخيها ، أى أنها لم تنس غذاء العقل والبطن معًا . فى الخطاب الموجه لى ، تنادينى شيماء بلقب (أبى) وتقول إنها تنشر رسالة استغاثة إلى كل الآباء الذين يتركون أبناءهم وهم معهم . جيلها متعطش للحنان ولتفهم الأب .. الأب الذى يعتقد أن الأبناء بحاجة إلى المال أكثر من حاجتهم لهم . هذه مشكلة كل آباء هذا الجيل يا شيماء ، حيث الأب يعمل خارج مصر ، أو يعمل داخل مصر فترتين يوميًا .. انتهى عصر الأب حامل البطيخة الذى يجلس فى الشرفة عصرًا يشرب الشاى بالنعناع وحوله أسرته .. يجب أن تسامحى أباك .. فنحن فى ظروف غير تقليدية وهناك ورطة اقتصادية مزمنة فى كل بيت ... احمدى الله على أن أمك جوارك وهى بالتأكيد تلعب دورًا ليس بالهين

تطالبنى بأن أقلل من قسوتى على المؤلف الذى يكدح كى يضعنى فى قصص ممتعة . لقد اعتاد قسوتى يا شيماء وأنا أعرفه أكثر من سواى .. أى تدليل يفسده ...

أكرر شكرى .. هم هم ..

والآن انتهت هذه الملزمة ... أشكركم كثيرًا ونلتقى فى معرض الكتاب لو أحيانا الله .

د . رفعت إسماعيل

القاهرة



مشروع القرن الثقافي

روايات مصرية للجيب

في كل رواية متعة دائمة

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط الغموض والإثارة



د. أحمد خالد توفيق

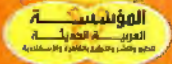
أسطورة معرض الرعب

نعم .. هناك شيء مخيف في المعارض والمتاحف بلا شك .. من الصعب أن تجد تفسيرًا لهذه الرهبة التي تشعر بها أمام لوحات .. مجرد لوحات قديمة رسمها ديلاكروا أو روبنز. لكنها تثير في أطرافك قشعريرة غريبة. في قصة (ليلة الجنرالات) لـ (هانس هيلموت كيرشت)، وقف الجنرال النازي أمام لوحة لفان جوخ .. هنا بدأ يرتجف كورقة .. ثم أصابته نوبة صرعية كاملة. السبب أن رسالة الصرع التي تركها (فان جوخ) في اللوحة انتقلت كاملة سليمة عبر الأعوام إلى الجنرال ... المعرض الذي نتكلم عنه اليوم حالة خاصة جدًا وفريدة .. الفكرة هنا أنه يعكس حالة نفسية سيئة لدى من رسم اللوحات، والسؤال هو: هل هذه الطاقة النفسية قادرة على أن تبقى عبر الأعوام لتنتقل لواحد آخر؟ .. لقد رأينا الصرع ينتقل مع (فان جوخ) فماذا عن أشياء أخرى؟

العدد القادم

أسطورة الفتاة الزرقاء





الثمن في مصر 500
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم